

الحرب..

الحــــرب .....

والنــــاس.....

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

الإرشاد

بيروت - حارة حريك
ص.ب ٢٠٩/٢٥ الغبيري

الحـــرب .....

والنـــاس ....

تأليـــف

الأستاذ عبد العزيز الحاج

الإرشـــاد

للطباعـــة والنشـــر

الإهــداء

كنا نتحدث عن الحرب اللبنانية. فقال:

ـ لكل حرب أبطالها.. إلاّ حرب السبع عشرة عجافاً، ما لها من أبطال.. خرج الناس منها منهزمين.. عسكرياً و.. إنسانياً.. ملوثين.. يداً وضميراً..

قلت:

ـ لا!.. صحّحْ معلوماتك.. لحرب السبع عشرة عجافاً.. بطل!!..

ـ من هو؟!..

ـ ذاك الذي بنى، والمدافع تهدم..

ذاك الذي عاش في غابة سلاح. ولم يحمل سكيناً..

ذاك الذي بالكلمة الطيبة، أزاح البندقية عن صدره..

ذاك الذي بنى أسرة مُثْلَى، وكل الأُسر تهاوت إلى الحضيض..

ذاك الذي صان يده نظيفة، حين صار تدنيس اليد، بالسطو وسفك الدماء، طرازاً للعيش..

ذاك الذي ظلّ مؤمناً بالإنسانية، وعاقل الناس وسفيههم، داس شرفها، وانتهك منها الحرمات..

ذاك الذي حفظ الوطن في قلبه، حين الكلُّ كافر بالوطن، وبالرخيص بائعه. .

سأل:

ـ لكن الحرب انتهت، وأشرارها تسنّموا قمة الوطن. .

ـ قمة الوطن المزيّف. . تسنّموا. .

ـ والوطن الأصيل!.

ـ غائب.

ـ متى يظهر؟.

ـ حين يظهر البطل. . فيملأ الوطن قسطاً وعدلاً، بعد أن مليء ظلماً جوراً.

●

إلى البطل المنتظر ذاك. . أهدي هذا الكتاب. .

عبد العزيز الحاج

تذكِرة

لاستيعاب الأبعاد المكانية والزمانية لموضوعات كتاب «الحرب... والناس»، أورد التَذْكِرَات التالية:

أولاً ـ غالبية موضوعات هذا الكتاب، إن لم أقل كلها، حقائق وأحداث، وقعت أو مألوف أن تقع، في أي وقت، خلال الحروب اللبنانية الضروس. فكانت معالجتها، مبادرة في النقد الإجتماعي، المرير مرة، والساخر أخرى، وذلك توطئة لبدء انتفاضة الإصلاح، وتصحيح المسار...

ثانياً ـ غالبية موضوعات الكتاب، قُدِّمَتْ برامج في إذاعة لبنان، إبان أحداث الحرب، فكانت نقداً إجتماعياً مباشراً أو شبه حي، لآثار تلك الحرب، التي عانى منها الناس، معاناة قياسية، في تاريخ الحروب البربرية على سطح هذه الأرض.

ثالثاً ـ الأرقام النقدية، الواردة في الكتاب، بالليرة اللبنانية، تعود إلى ما قبل عام ١٩٨٥م. في هذا العام بدأ تحرك سعر صرف الدولار صعوداً، لتبدأ مسيرة انهيار سعر صرف الليرة اللبنانية بشكل مريع، ومدمر للإقتصاد والعباد، بلغ أحياناً ثلاثة آلاف ليرة، سعراً لصرف الدولار الواحد، مقابل أربع ليرات فقط، وربما ثلاث ليرات، قبل ذلك العام.

فتأملوا، وقولوا معي: «سبحان الذي لا يدوم إلّاه»

المؤلف

توطئة

حينما يشتم فتى في العشرين، كهلاً في الستينات من عمره، شتماً مقذعاً، لتباطؤه في إخلاء الطريق أمام سيارته المجنونة..

وحين يُنْسِي الغضب الساطع، الكهلَ آلام مفاصله، فيقذف بنفسه على مقدمة سيارة الفتى، فيوقفها، ثم يشتبك مع الفتى الهائج، في معركة مريرة، يلكم فيها الفتى، الكهل، دونما رحمة أو خجل، ويقرع فيها الكهل، مستميتاً في الإنتصار لكرامته، رأس الفتى بعصاه حتى يشجّه...

... أقول: حين تسمح الحياة بحدوث ذلك، في شوارع بيروت...
فلن يكون معنى ذلك إلا أن ميزان الحياة الإنسانية، في هذا البلد، قد اختلّ بدرجة مريعة...

وأن أبسط ما دمرته الحرب ـ واقعاً ـ كانت الأبدان والجدران. وأن التدمير الحقيقي الرهيب، هو الذي أصاب بديهيات حياتنا الإنسانية، الفباء تقاليدنا، أعرافنا، مفاهيمنا الإجتماعية، أرواحنا، أخلاقنا....

وأننا عدنا إلى بدائية إنسان الكهوف، الذي لم يتعلم فَتَاهُ بعد، حق الكبير عليه في الإحترام والرعاية والوفاء، والذي نَسِيَ كهلةُ الوقار، والأُبوّة، والتعقل والحنان..

وأن لبنان، المعنى والثقافة، ضاع إلى أجل غير مسمى.

وأن عهد العناية الفائقة، لشعب مريض مريض، يجب أن يبدأ عاجلاً...

وأن أولى عمليات العناية المكثفة تلك، هي نقد الذات، وتشخيص الداء...

●

في عهد شتم الفتى، الكهلَ، ومنازلة واحدهم الآخرَ في اللكم والركل وشجّ الرؤوس، اجتمع ثلاثة في مقهى، حول ثلاث نراجيل عثمانية، من عهد أحمد باشا الجزار.

أولهم، سمّى نفسه رجل اقتصاد. ثانيهم ادعى أنه رجل إعمار. وثالثهم كان مصاباً بلوثة الأدب والتأدب والتأديب.

اجتمع الثلاثة، في لقاء صداقة مزمنة، من تلك اللقاءات التي جعلوها دورية إسبوعية، ليس فحسب لتؤنسهم في وحشة الحرب، التي شربوا كأسها، من نقطة الفيض حتى الثمالة، بل أيضاً، لينصّبوا أنفسهم ـ أخزى الله عنهم الشيطان، وحساد الأنس والجان ـ لينصّبوا أنفسهم، ثلاثة من رجالات إعادة بناء الوطن، حجراً وبشراً.

(استدراك: لماذا بحق سمائكم، يرد الحجر، دائماً، قبل البشر حين نتكلم ـ نحن اللبنانين ـ أو نكتب عن تدمير لبنان أو إعادة بنائه؟. الأننا يا ترى ـ بالغريزة والعرف التاريخي ـ والعياذ بالله، عَبَدَة أحجار، في عهدَيْ الوثنية والسماوية؟. أم لأننا ـ بعضنا وربما كلنا، لا سمح الله ـ نُغَلِّب الحجر، في القيمة، على البشر؟).

انتهى الإستدراك التساؤل، فلنعد إلى خرافنا التي شردت لتوّها.

●

أخذ رجل الإقتصاد «نَفَساً» عميقاً من نارجيلته العثمانية، ثم نفثه

طويلاً، ليطيل وقت تفكيره، في كيفية معالجة الوضع، ثم قال:

«مَكِّنوني من سلطة الأمر والنهي في هذا البلد، فاحوّل لكم لبنان مصرفاً، تَصبّ فيه أموال الدنيا، ثم تخرج منه، نَماءً، وغذاءً، وكساءً، ودواء. . .»

سأل الإثنان:

«والمدة المطلوبة لذلك، أيها الآمر الناهي»؟.

أجاب:

«خمس سنوات»

هتفا له بحماس:

«أحسنت! . أحسنت!»

●

مَضَّ رجل الإعمار فم (نربيشه) مضَّةً، اهتزت لها نارجيلة الجزار، حتى لخشي جليساه أن يشفطها شفطاً.

وحين أفرغ محصّلة المضّ والشفط من رئتيه، قال:

«مكّنوني من سلطة الأمر والنهي، في هذا البلد، حتى أعيد لكم اعمار لبنان، ليس كما كان وحسب، بل أحسن مما كان»

«والزمن اللازم لذلك يا آمرنا وناهينا؟»، سألاه، فأجاب:

«عشر سنوات».

هتفا معاً، ولكن، بغير حماس هذه المرة:

«حيّاك الله و . . . هداك»!.

●

جاء دور الفقير إليه تعالى، الأديب، المتأدب، المؤدب، فلم يأخذ «نَفَساً» من نارجيلته، لأن نارجيلته لم تُشْعَل.

ولم تُشعَل لأنها خالية من التنباك.

ولقد خَلَتْ من التنباك، لأن دخانه يؤذي حساسية نزلت به، بالإضافة إلى اللوثة المتقدم ذكرها، فإذا سألته:

«لماذا إذن طلبت النارجيلة وأنت لا تدخنها»؟.

أجاب:

«طلبتها لأحدث التوازن والمساواة مع صديقيّ، فأنسجم بالتالي، مع بلدي المهووس بالتوازن والمساواة، حتى ولو أنه لم يُرَ يوماً واحداً، متساوياً ولا متوازنا».

جاء دور الأديب المتأدب المؤدب في الكلام، ففكّر وقَدَّر، ثم نظر، ثم عَبَس وبَسَر، وقالَ:

«مكّنوني من سلطة الأمر والنهي، في هذا البلد، فأعيد إليكم، إنسان لبنان، مثلما كان قبل الحرب، بل ربما أفضل خُلُقاً وعملاً».

وهتف الإثنانٓ بحماس كبير:

«ومتى بربّك يتمّ لنا ولك ذلك؟.

أجاب:

«بين أربعين سنة، وخمسين».

وصرخ الصديقان غاضبين:

«قاتل الله شرك! خمسين سنة تبقينا ليعود إنسانُ اليوم، إنسانَ الرابعة والسبعين أو أحسن قليلاً»؟.

حملق ذو اللوثة الأدبية في نِدَّيه، ثم فكّر وقدّر، ثم نظر، ثم عبَسَ وبَسَر، فقال بتؤدة الواثق وحزمه:

«نعم خمسين سنة أحتاج، لكي أنتج جيلاً، غير جيل هشام ابن جيراننا».

ـ ماذا؟ ماذا؟.

انهال عليه الصديقان يسألان مغتاظين ذاهلين.

ـ من هو هشام ابن جيرانك؟ ولماذا هشام بالذات؟ ما حكاية هشام هذا؟ قل، إحْكِ، فصِّلْ!...

هدّأ رجل الكلمة والتهذيب والتربية، ثائرة الصديقين وتكلم بهدوء حاسم:

ـ هشام ليس حكاية، ولا رواية... إنْ هشامُ إلا فتى في الثامنة عشرة من عمره. ترك المدرسة في المرحلة المتوسطة، عاطل عن العمل. ينتمي إلى أسرة كانت كريمة رفيعة الشأن. أحَلّتْها الحرب داراً سفلى. وبالرغم من كل هذه المعطيات، فإن هشاماً هذا، لا يحسن أن يقول، حين نلتقي في سلم مبنانا، ويوشك وجهه أن يرتطم بوجهي، لا يحسن أن يقول لي: «صباح الخير يا عم».

ـ «هشام هذا... أخرس؟»، انطلق الصديقان يسألان.

ـ لا

ـ أصمّ؟

ـ لا

ـ أعمى؟

ـ لا

ـ معاق؟

ـ لا

ـ إذن

ـ هشام كان في مستهل الحرب، صحيفة بيضاء، تنتظر الحياة والزمن لِيَخُطَّا فيها، مكارم الأخلاق، فخَطَّتْ يد الحرب ومجتمعها فيها، من الأخلاق، اسوأها.

هشام كان، بداية الحرب، وعاءً ينتظر أن تملأه الحياة والزمن، بطِيب الخِصال، فأتْرَعَتْه الحرب عنفاً، وعقدة رعب، ويأساً واحباطاً. . .

حشته بانعدام الثقة. . . بالشكّ في كل شيء.

الشكّ في يومه وغده، وحتى أمْسُه ما سَلِمَ من شكّه.

حشته الحرب قسوة وشذوذاً. وحشته حَيْرة وضياعاً.

هشام لم ير المجتمع المنظم ولا عايشه، بل رأى وعايش ومارس فوضى التراتبية الإجتماعة، التي قلبت مجتمع الإستقرار، رأساً على عقب، فصار الرديء عالياً والطيب سافلاً. . . وصار الأشرار قادة والأبرار

مقودين. . . وبذلك، اختلت المعايير في ذهن هشام واختلطت، فلم يعد يميّز بين كبير وصغير، ولا بين عظيم وحقير. . .

صار ما يصيره فاقد الإحساس بالإتجاه، من رواد الفضاء، إذْ هم سابحون فيه بحالة انعدام الوزن. . . يتساوى لديهم الفوق والتحت. . . والأفقي والعمودي. . .

شيء واحد في هذا التِيه، يعيه هشام ويدركه. . . هذا الشيء هو في نظره سفينة النجاة، وصمام الأمان، وخشبة الخلاص. .

إنه البندقية!!.

البندقية الضاغطة أصبعُه، ليل نهار، على زنادها.

البندقية عند هشام هي القيمة، هي النموذج الوحيد المحتذى، هي الآمر والناهي، هي الحكَمَ الأوحد، الأصدق، الأقوم. . .

بالبندقية يحصل على الأكثر، بالجهد الأقل، بل باللاجهد واللامسعى. بالبندقية يفْتح كل باب، وبالنبدقية يدخل كل محراب. . .

البندقية تعطي هشاماً الحق، ولو لم يكن له حق، وتدفع عنه صفة الباطل، حتى ولو كان يحيا في رحم الباطل. . .

بالبندقية يصبح الحرام، لديه، حلالاً، وبها يصبح الحلال، على أهله، حراماً.

بالبندقية يدافع الـ. . .

. . . ولم يَدَعْ اندهاش الصديقين، الأديبَ يكمل، وصاحا:

ـ كفى! كفى نحيباً يا هذا ونعيباً. . .

وسأل أحدهما:

ـ قل لنا. . . ما دام هشام أو جيل هشام كذلك، فلم لا نصرف سنتين أو ثلاثاً أو خمساً. . . في توعية هذا الجيل، ما دام المدفع، ينبوع الحرب، قد نضب معينه الجهنمي، ثم نحشو هذا الجيل بثقافة بديلة عن ثقافته السوداء، ثم ينتهي الأمر، ويسير هشام وجيله معه، سيرة التقاة الورعين، و. . . كان الله يحب المحسنين. . .

ـ لكي أصلح هشاماً وما بعد هشام، عليّ أن أسلك ثلاث مراحل متتابعة، آملاً في آخرها، أن استبدل هشاماً الأسود، مع الزمن، بهشام أبيض أو أخضر أو وردي. . .

●

في المرحلة الأولى، عليّ أن أكافح هشاماً أو جيل هشام، مكافحتي الأمراض السارية، فاحاصره وامنعه من الإنتشار، لأعزل جرثومته الخطيرة، عمَّن شُفِيَ أو سلم منها، بطريقة أو بأخرى.

وخلال هذه المرحلة ذاتها، عليّ أن انتقي ممّن سلم أو نجا من فساد الحرب، أكبر عدد ممكن، أحيطهم بستار فولاذي، لا يخترقه وَبَأٌ أو فساد، واختزنهم لمهمة تأتي في المرحلة التالية. . .

●

في هذه المرحلة، أتفرغ للمنتخب الطاهر السليم، فأغرقه في سيل عرم من التوعية الأخلاقية والمسلكية، ومن الثقافة الإيجابية المتسامية، تؤهله ليكون فريق مرشدين صالحين، للجيل القادم الذي يكون عندها، في أوائل عمره، طاهراً خليّ النفس من شوائب الحرب، وحتى من شوائب الحياة الإنسانية.

●

تأتي المرحلة الثالثة، وفيها يكون العمل الجدي الكبير. مرشدو الجيل الذين أعددتهم، ينخرطون في مهمتهم الكبرى، في تربية وتثقيف جيلنا الثاني الذي عليه المعوّل، وفيه الأمل والرجاء...

انه جيل القرن الحادي والعشرين، الذي لا بد أن يكون قمة في الأخلاق، قمة في الذكاء، قمة في المهارات.

طبعاً... هذا الجيل مطلوب منه، أن يُبْحِرَ في خضمّ القرن الحادي والعشرين، المتلاطم الأمواج، الزاخر بالأخطار والتحديات والمفاجآت العلمية والكونية الصاعقة.

مطلوب منه أن يُبْحِرَ في هذا القرن، إلى أعماق الأرض، حتى يبلغ نواتها، وأن يُبْحِر، في نفس الوقت، إلى أعماق الفضاء، إلى أبعاده السحيقة، فيتصل بحَيَوات أخرى، في أنظمة شمسية أخرى...

●

شفط الصديقان (أنفاس) نارجيلتيهما، حتى أخمداها بالمرة... وسألا يائسين:

ـ والآن... كيف نبدأ؟.

علينا أن نشخص ادواءنا الاجتماعية، ويكون التشخيص نقداً ذاتياً. ثورة على الواقع الفاسد... الذي هو التوطئة الضرورية للثورة الثانية، ثورة معالجة الداء، تليها ثورة النقاهة والشفاء...

وحتى لا نستطيل زمن الإنتظار... لنبدأ الآن... ولنقتل عَوْلَ الصبر باستعراض نماذج أولى، عشوائية، من مظاهر فساد مجتمعنا. فإذا أفلحنا في

استيعابها عرفنا الداء فبحثنا له عن الدواء. وإذا لم نفلح، تسلينا زمناً من الصبر المُمِضّ، وضحكنا من واقعنا.

واقع حياتنا الحاضرة يسلي ويضحك، ولو كان بعض ضحكاتنا من هذه الحقائق ترافقه الدموع.

●

قراءنا الأعزاء..

بالنيابة عن المصلحين الثلاثة، أدعوكم إلى متن هذا الكتاب، لنبدأ معاً، قراءة له جادة حازمة، بالرغم من مهاترات ضاحكة هنا تزيل وقار جديتنا، ومن مداعبة سادرة هناك، تخفف من شحنة حزمنا، ومن وخزات موجعة هنالك، تشيع فينا الألم وتضعف الأمل...

قراءتكم هذه يا أعزاء، هي مشاركة فعالة في الحملة المباركة الكبرى، حملة إزالة آثار الحرب عن البشر والحجر. والبشر، هذه المرة، هدف العناية قبل الحجر.

نقول حملة كبرى، لأنها تستهدف إنقاذ لبنان، وإنقاذ شعبه الذي سُمِّيَ، ذات يوم، معلم التاريخ، وممدّن الشعوب.

عبد العزيز الحاج

ميتشغان في الأول من أيلول ١٩٩٥م

١ ـ زجاج السيارة

أتسمح لي قارئي العزيز، بوصلة ضحك صاخب، افتتح بها حديثي هذا؟. شكرا. سأبدأ الضحك: (هاهاهاه... إلى ما شاء الله)!.

وشكراً على أنك استمعت إلى ضحكي بصبر جميل، وآن لك أن تسأل عن سبب الضحك:

ـ لماذا تضحك يا هذا؟.

شكراً على السؤال وهذا هو الجواب... والجواب: حكاية تُضحك في بدايتها. لكنها، في نهايتها تُبْكِي بكاءً مُرّا...

إنها حكاية لص طريف، دمه خفيف. إنه لص زجاج سيارتي...

ـ وسيارتك... لها لص؟.

هكذا يبدو، وإنه ـ والحق يقال ـ لص ظريف، يقول لأرسين لوبين: «قم لأقعد مطرحك»...

وهذا اللص ليس فقط ظريفاً، إنما فيلسوف، وديموقراطي و «حَقَّاني».

ـ حَقَّاني.

نعم، ينتصر للحق، فهو «حَقَّانِيٌّ» عادل... وفوق كل هذا وذاك هو مظلوم.

ـ مظلوم؟.

ـ وظالم

ـ وظالم؟. لا لا... هذا مضحك حقاً.

رويدك وفّر ضحكك حتى تبدأ الحكاية...

ـ هيا ابدأها وكفى إثارة لفضولنا...

ـ أصبت، وإليك الحكاية من البداية إلى النهاية.

●

منذ يومين أو ثلاثة... خرجت صباحاً من بيتي، كالعادة، لأتسوّق. وما إن وصلت قرب سيارتي، حتى وقفت جامداً في أرضي، كتمثال من حجر...

نجّنا يا رب!... واجهة سيارتي، بعد أن كانت شتوية، صارت صيفية... الزجاج الأمامي طار... لا لا... لم يكسر... بل سُرق. شُلِّحَ تشليحاً فنياً وتكنولوجياً... وهو غير متواجد لا في السيارة ولا قربها ولا حتى في شارعنا الطويل العريض.

غيّبتني الصدمة دقائق، لم أعِ خلالها شيئاً مما حولي... لكن... عند عودتي من غيبوبة الصدمة، ومن قاع هوة حزني وغضبي وإحباطي، لمحت ورقة مطوية، ومرمية على مقعد السيارة الأمامي بشكل ظاهر، أريدَ به أن يُعثَرَ بسهولة عليها، لإيصال ما كتب فيها إلى غايته...

التقطت الورقة، فتحتها بقلب واجف، وإحساس مرهف. وجدت عليها عبارتين أو أكثر، فرحت اقرأها...

«سيدي صاحب السيارة... سرقوا زجاج سيارتي... فسرقت زجاج سيارتك... لَنصحك أن تسرق زجاج سيارة أحد ثالث، حتى تعوّض خسارتك... التوقيع... الظالم المظلوم».

●

ما رأيك، قارئي، بهذه الرسالة؟. هل تُضحك أم تُبكي؟. أم تضحك وتبكي معاً؟.

أتريد الحق؟. أنا مثلك، لا أدري... أنما الذي أدريه جيداً، هو أنني بعد أن قرأت الرسالة، من جارنا اللص الفيلسوف، الجائر، العادل، الظالم، المظلوم... وقفت جامداً... أفكار تأخذني بعيداً... وأفكار تردني إلى مكاني... واسمع عبارة كررها لساني، بعد قلبي تقول:

آخ يا بلدنا!. آخ يا بلدنا!.

ومع الـ «آخ يا بلدنا»، أفكار مشوشة، من كل وادٍ عصا، تجوب ذهني رائحة غادية:

لماذا كل شيء في بلدنا، صورته «نيغاتيف»؟. الأبيض أسود، والجالس أعوج، والوجه قفا؟.

لماذا صارت العدالة سلبية، علماً بأن العدالة ما كانت ـ عمرها ـ إلا إيجابية...

لماذا صار البريء المظلوم، لا يعود إليه حقه، إلا إذا ظلم بريئاً آخر؟. كما أن إنصاف هذا الآخر، لا يكون إلا على حساب ظلم بريء ثالث؟!.

من أين يا ربي جاءتنا هذه الأفكار؟. من أين اتتنا هذه المصائب؟.

●

قرأت، من زمان، كتاب النازية... النازية اضطهدت كل اخصامها، ومنهم الصهاينة... الصهاينة استخدموا نفس أساليب النازية، ليس مع النازية طبعاً، إنما مع أبرياء، فعذبوهم وظلموهم وانتزعوا أرضهم ووجودهم، دون أن يكون لهؤلاء الأبرياء، أية سابقة تعذيب ولا ظلم ولا انتزاع أرض ووجود، لا من الصهاينة، ولا من أي قوم آخرين...

يومياً نقرأ ونسمع، أخبار اختطاف الطائرات، واحتجاز ركابها رهائن،

واستخدام هؤلاء الركاب وسيلة ابتزاز أو انتقام، علماً بأن ركاب هذه الطائرات الرهائن... طاهرون أبرياء، لا هم في عِير الخاطفين، ولا في نفير المقصودين بعملية الخطف والإسترهان...

وهكذا سارت هذه الظاهرة العالمية على قاعدة:

«إذا كنت تخشى قرنَيْ البقرة فانطح عِجْلها».

●

يا ناس!... يا بشرا... هذا العجل البريء ليس هو الغريم ولا الخصم، ولا الظالم...

أين شرائع السماء عندكم، أفلا تقرأونها؟. أين قوانين الفلاسفة وأفكارهم، أفلا تطلعون عليها؟... أين أخلاق الفروسية والبطولة والشهامة... أخلاق تراثنا... أخلاق جدودنا وآبائنا التي تقول:

قف مع المظلوم ضد الظالم...

والتي تقول:

افتدِ بدمك الخير، وابذل روحك في مكافحة الشر...

يا لص زجاج سيارتي! يا ناشر العدالة على وجه الأرض، على طريقتك طبعاً، وبأسلوبك الخاص العجيب... عوضاً عن أن تسهل انتشار اللصوصية، بعدالتك الـ «نيغاتيف»... اذهب وفتش عن زجاج سيارتك، عند الذي سرقه، وليس عندي...

وإذا لم تستطع التفتيش عنه وحدك، أسير معك، ويسير معك غيري، رِجْلُنا على رِجْلك، خلف اللص الأصلي الحقيقي. خلف الأخطبوط، الذي تُساعده، أنت بإسلوبك، على امتداد أصابعه السوداء إلى كل مكان، وفي كل اتجاه...

وحين نهتدي، أنت ونحن، إلى رأس ذاك الأخطبوط نسحقه معاً، ونريح مجتمعنا المثخن بجراح الحرب، منه ومن أمثاله . . .

أما أن تنزع اصبعه عن رقبتك، لتضعها على رقبتي، فأنت، يا صاحبي، أخطبوط آخر.

واصبعك ـ عملياً ـ وظّفتَها أنت إصبعاً إضافية للأخطبوط، أو جعلتها وصلة لإصبعه.

يا لص زجاج سيارتي . . . نصيحتك لي بسرقة زجاج سيارة غيري، تذكرني، بذاك الذي (تشاطر) على ربه، جلّ وعلا، فسرق رمانة من بستان، وأعطاها أحد الفقراء صدقة. سأله رفيقه:

ـ لماذا فعلت هكذا؟.

فقال له:

ـ سرقت الرمانة، فكتبها الله لي سيئة، تصدقت بها على فقير، فكتبها الله لي عشر حسنات. طيّرت السيئة حسنة فربحت تسع حسنات[1].

رد الرفيق على (المتشاطر) حتى على الله، جلّ جلاله، بقوله:

ـ سرقت الرمانة، فكتبها الله عليك سيئة. تصدقت بها على الفقير، فلم يقبل الله الصدقة، لأن أصل الصدقة هذه . . . حرام . . .

---

(١) تفسير وتطبيق ماكران باطلان وخبيثان للآية الكريمة رقم (١٦٠) من (سورة: الأنعام)، ونصها: ﴿مَنْ جاء بِالحَسَنةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالها * ومَنْ جاء بالسَيِّئَة فلا يُجْزَى إلا مِثْلَها وهم لا يُظْلَمون﴾ صدق الله العظيم.

٢ ـ بالدَوْر

ما هي الديموقراطية؟.

نعم. الديموقراطية التي لا ترى أنساناً في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ولا في البسطة والدكوانة، ولا في زاروب التلميس، أو التمليص حسب رواية أخرى، ولا حتى في نزلة شتورة، وطلعة شحفنتورة..

أقول: لا ترى إنساناً في كل هذه البقاع والأصقاع إلا ويدّعي الديموقراطية، وأنه عائش عليها وبها، ويتعامل معها يومياً، تماماً كما يتعامل مع صحن فول، أو كعكعة كنافة... ويتعاطاها ثلاث مرات كل يوم، قبل الأكل وبعد الأكل. ولكن...

ولكن... إذا جئت تسأل هؤلاء الناس عن معنى الديموقراطية تتلعثم ألسنة معظمهم، ويبدأون بالهلوسة السفسطائية، التي تصيب نادراً الديموقراطية، وغالباً تخطئها...

لذلك... هل تدعني أشرحها حسب مفهومي العفوي الذي هو على «قدّ الحال»؟.

الديموقراطية حسب رأي أرسطو، وزوجتي فيفي، وجارنا غُزَيِّل الدشمان... معناها حكم الشعب... والشعب، حسب مباديء الديموقراطية ينتخب نوابه، والنواب ينتخبون الرئيس، الذي يحكم البلاد مع معاونيه.

إذن. بالديموقراطية، الشعب يحكم بواسطة رئيسه، والرئيس يحكم باسم الشعب. وأفراد الشعب متساوون أمام القانون، سواء كانوا حكّاماً أم غير حكّام.

هذه هي الديموقراطية، حسب مفهومي كما قلت، مع التحفظ الشديد، معلناً قبولي لمناقشته، ومتعهداً بالتراجع عنه، إذا اتضح خطأه.

●

انتهت الحزّورة الأولى... وبقيت الثانية...

والثانية متعلقة بالأولى، وفحواها: ما هو أبسط وأصدق دليل على الديموقراطية.

لن أدعكم تفكرون كثيراً في الجواب... فأنا أتولاه...

أبسط وأصدق دليل على الديموقراطية، أن تقف في الصف، وتنتظر دورك، قدّام شباك التذاكر في المسرح أو السينما، قدام دكان أبي علي اليبرودي... قدام شباك دفع الضرائب... أمام مكتب تخليص المعاملات... أينما كان وفي كل زمان وأوان...

أينما تعثر على هذا الصف منتظماً، وسائراً بهدوء وسكينة، فقل إن الديموقراطية، تخيّم على هذا المكان بأجنحتها الملائكية...

وفي أي مكان لا تعثر فيه على هذا الصف، بل تعثر على الناس واقفين بالعرض، والطول والورب، في نفس الوقت، فقل إن الديموقراطية فرّت من هذا المكان، إلى الجانب الآخر من الأرض...

في كل بلاد راقية نزورها... نجد هذا الصف منتصباً هادئاً، وإذا رَنَّتَ الإبرة في أرضه تسمع رنينها.

سيدة البيت، أو العامل، أو المدير، أو حتى الوزير، تجده يقف في مكانه من شريط الدور، وفي يده حقيبة معدّة لاحتواء مشترياته، التي أتى من أجلها، وفي اليد الأخرى، كتاب أو مجلة أو صحيفة، غاص في قراءتها، أولاً للإستفادة من محتوياتها، وثانياً لقطع وقت الإنتظار، حتى لا يمل من الوقوف في الدور، حرصاً على كرامة الدور وقدسيته وديموقراطيته.

من المضحك المبكي أن تجد بلاداً تدعي الديموقراطية، ولا تؤمن بهذا الصف... بل يبلغ استخفافها به أن تنسبه إلى لعبة للأولاد الصغار... أو تقترحه نموذجاً يصلح لتلامذة المدارس وليس لرجال الحياة.

ويُضحك ويُبكي أكثر، أنك قد تجد هذا الصف قائماً في بلد من البلدان... لكن وجوده كعدمه... لأن الواقف فيه قد يتجاوز مَنْ يقف أمامه حسب مزاجه، وأن الواقف في الذَنَب، قد يصبح في لحظات، طليعة الصف ورائده. وذلك حسب نفوذ ذاك الواقف أو حجمه الإجتماعي، أو قوة عضلاته، وذخيرة سلاحه الميتة والحية.

●

عندنا، مثلاً.. ومعذرة إن عرضت نقدي الذاتي هذا، واعترفت بالخطأ نيلاً للفضيلة، وشروعاً في إصلاح النفس...

أقول: عندنا مثلاً. نطبق جوانب من الديموقراطية، المقدسة جداً، على النحو التالي:

ذهبت أمس لأنجز معاملة تجارية في مؤسسة، امتنع عن ذكر اسمها حفاظاً على هيبتها.

وصلت إلى المكان المقصود، وجدت عدداً من الأوادم، الذين

يُسَمَّوْن، في التقسيم الديموغرافي، الأكثرية الصامتة الصابرة. وجدتهم «قابضين» الديموقراطية عن جدٌّ وجِدِّية، وتنفيذاً للجدّية تلك، انتظموا بنظام الدور، في صف يشبه صفوف البلاد الراقية.

قلت في نفسي: يا رجل. هل يُعقل ألا تكون أنت من صف الأوادم؟. «أمپوسيبل». مستحيل.

وبكل رقيٍّ وحضارة وتمدّن، وقفت في ذيل الصف.

مرت دقيقتان، ثم سمعنا صوتاً يرعد، وضجيجاً يتصاعد:

ـ من القادم؟.

ـ أبو العناتر!..

أبو العناتر، مسدسه على جنبه، و...

ـ زيحوا يا شباب، وصل أبو العناتر...

●

أفواه الأكثرية الصامتة الصابرة، انفتحت لتعترض، لكن حدجة واحدة من عيني أبي العناتر لعيونهم، وضربة واحدة من يده على مسدسه، أعادت تلك الأفواه لتنغلق على كلمتها المعترضة...

وعندها لمحت الديموقراطية تسللت خلسة إلى الخارج، وراح ساقاها يسابقان الريح...

أبو العناتر، فرغ، عندها، له المكان، وأهل المكان... أنجز معاملته بسرعة وهدوء، وانصرف... وصف الديموقراطية الطويل صامت وصابر... وآمِلٌ أن تكون العقبة، في طريق انجاز معاملاتهم، قد زالت بزوال أبي العناتر وانصرافه... لكن...

لكن دقائق خمساً فقط تمر... فيصل إلى المكان، هذه المرة أبو الذهب... وأبو الذهب، كما يدل اسمه، مصنوع من الذهب... والكل يهابه جداً و... يحبه جداً...

●

وقف أبو الذهب في الباب، ومسح المكان بعينيه الدعجاوَيْن، وشاربيه الأعقفين، ثم ضحك ضحكة استخفاف واستعلاء... الصف الطويل لم يعجبه...

رأى فيه عصا في دولاب حياته اليومية الغالية عليه، كما هي غالية على كل من عرفه أو تعامل معه...

إذن... يجب التصرف بحزم وعزم، حفاظاً على أمنه الإجتماعي والـ... والذهبي...

غمز أحد أزلامه، ففهم هذا الغمزة ومراميها ومعانيها، مشى إلى شباك إنجاز المعاملات، مستعرضاً صف الأوادم، كقائد يستعرض صغار عساكره.

بلغ الشباك، وبدأ يتفاهم مع الموظف المسؤول، حسب العادات والأصول، والتي تنص على أن الفول، لا يؤكل إلا بعد دفع ثمنه وكيله بالمكيول.

الأكثرية الصامتة، اختلجت أجسامها المتراصة في الصف، وتمتمت شفاهها بعبارات غير مسموعة، لكنها مفهومة.

أصاب الموظف المسؤول رذاذ بسيط من تلك العبارات، فشعر بما يشبه الخجل، وقال لـ «بعض» أزلام أبي الذهب:

ـ بالدور يا حبّوب!.

ـ بالدور يا هيّوب!.

ذهل الحبوب. وحينما تنهّد أحد المصطفين بالدور وقال:

ـ يا صبر أيوب!.

جن جنون الحبوب الهيّوب واقترب، على عجل، من سيده أبي الذهب المذّهب، وهمس له:

ـ معلمي، المسؤول المسطول يقول: بالدور. فماذا تقول أنت؟.

وتحركت شفتا أبي الذهب بالحكمة والموعظة الحسنة:

ـ حبّوب.. دَبّرْه.. ضَبّطه ضَبَّطكَ الله!.

ـ حبوب الهيّوب، هجم عندها على شباك إنجاز المعاملات، هجوم الذئاب الكواسر، وبدأ الحوار الهامس، لا يُسمع منه إلا:

ـ وش وش وش وش!!.

●

الوشوشة كانت من الوضوح والفصاحة والبيان، بدرجةٍ استطاعت معها أن تقنع المسؤول فوراً، فعَلّق العمل بالديموقراطية مؤقتاً، وأعلن حالة الطوارىء الإدارية الإستثنائية الديموقراطية، و... أنجزت معاملة أبي الذهب ذي المكانة العلية السنية.

هنا عيل صبر الأكثرية الصامتة الصابرة الصامدة، فتعالت احتجاجاتها الصاخبة، لكن الموظف المسؤول لم يسمعها... لماذا؟.

لأنه أصيب بالصمم فجأة... فقد تبين للجميع أن أحدى أُذنَيْ المسؤول قد صُبّت بالفضة، والأخرى صُبَّتْ بالذهب...

٣ ـ قهوة الملايين

هل سمعت بمقهى الملايين؟. أو لنسمِّها باسمها الحقيقي الشعبي (قهوة الملايين).

فلربما بهذا الأسم تعرفها...

ماذا؟. لم تعرفها بعد؟. إذن. هلم معي إليها وسترى ما يدهشك من روادها ورائداتها.

قهوة الملايين... هي مقهى خاص برجال الأعمال و... «ستات» الأعمال على السواء...

قهوة الملايين، نبتت في أيام الحرب، أمراً واقعاً، ككل أمر واقع، نبت في هذا الزمن، عجيباً غريباً.

دخلنا «القهوة»... باسم الله ماشاء الله... وهذه مدام «أبو الخدود»ـ يعني انا ـ صاحب الدخل المحدود. أول ما يطالعنا من رواد ورائدات القهوة... تلبس أفخر ما عندها... رأسها فوق... أنفها يوشك أن ينطح السقف، علامة الإعتزاز، والثقة بالنفس.

طبعاً... ولِمَ لا؟. فقد... فقد صدر منذ شهور قانون «الزَوْدة للموظفين»، واليوم قبض زوجها «فروقات الزودة» عن ستة أشهر... وارتفاع الأسعار الفاحش نال من مدام «بو الخدود» لكمة موجعة، لعدة دقائق، لكنها

نسيت أنَّ حضرته، سيرد لها اللكمة لكمات، موجعة أيضاً، ولكن لعدة شهور قادمة... وربما، لعدة سنوات...

●

إهتم الحاضرون بالسيدة رفيعة الشأن ـ يعني حضرتي ـ تنافسوا على دعوتها إلى طاولاتهم:

مدام تفضلي... مدام... القعدة هنا أحسن... مدام هل تكرميننا بشرف تناول قهوتك معنا؟!.

وفي سيل الدعوات السخيّات... مدام أبو الخدود... كانت توزّع ابتساماتها على الداعين... أيضاً بسخاء ودلال...

وأخيراً... تكرمت، وتنازلت، وجلست إلى طاولة «رجل ما» وزوجته... ومن كلمة إلى كلمة... انفتحت أحاديث المال والأعمال، والربح الحلال و... غير الحلال... وتلقّت مدام أبو الخدود، صاحب الدخل المحدود، أول «سوربرايز».

صاحبنا... جليس المدام الآنفة الذكر... يملك ما عدا الفراطة و«القحاطة» حوالي العشرة ملايين... ليرة طبعاً وليس «متليكاً» أو «سحتوتا»[1].

مدام أبو الخدود، التي «زمّتْ» خدودُها وتقلصت ـ واحسرتاه! ـ عند سماعها الرقم المذهل، تماماً كبالون كان منفوخاً و... «فقع»... تبخرت

---

(١) نذكّر هنا بما ورد تحت عنوان «تَذْكِرة» في مستهل الكتاب، وهو أن الأرقام النقدية الواردة في الكتاب، بالليرة اللبنانية، تعود إلى ما قبل عام ١٩٨٥، عام بدء انهيار الليرة أمام العملات الأجنبية (شكراً).

فوراً من رأسها «زودة» راتب زوجها القميئة، تماماً كما تبخرت «فروقاتها المبحبحة» خلال دقائق، في دكان أبي جميل التِزْغَلّي...

أخذتها السكرة وأعادتها الفكرة... وفتحت أذنيها، على مصراعيها. وراحت تنصت إلى نظرات رجل المال... عن المال والأعمال...

●

يا مدام بو الخدود... المال ليس كل شيء في هذه الدنيا... أنا لا أتكلم عن مالي، قبل أن أتكلم عن أعمالي... عن أخلاقي...

أنا لست كذاك القاعد إلى الشمال... المتصدر الطاولة، والصامت صمت التمثال... واربعة خمسة خُدّام حواليه:

مُرْ سيدي... أطلب سيدي... تكرّم سيدي.... حاضر سيدي... على نافوخ رأسي سيدي...

ـ من تظنين يا أم الخدود.. هذا الصنم المعبود؟. ألا تذكرينه؟. هو بدّور «القزّاز».

ـ بدور القزاز؟.. يا للهول والفظاعة!... بدور القزّاز، لا غيره؟. نعم نعم... وكيف لا أعرفه، كان جارنا منذ سنوات اربع، وخلال أحداث الحرب اللعينة، اختفى بدّور... لم نعد نراه...

ـ خطفته السعادة، يا ذات الرفعة والسيادة... زجاج بيروت المسكينة المحطم، الذي تغيّر مرات ومرات، بفعل القصف المدفعي، رفع بَدُّوراً، من «قزّاز درفة الشباك» «وبرواز الصورة» إلى «قزّاز» أحياء بكاملها... إلى مستورد زجاج بالملايين...

ـ ادركوني... ادركوني... الأرض بي تميد... وعن جادّة الوعي أنا

أحيد. . . بدّور المسعور. . . صار مليونيرا؟.

●

ومادت بي الأرض ومادت، في كل مرة رحت اسمع خلالها كلمة من هذه الطاولة، وكلمة من تلك، وكلمة من هاتيك.

كلمات سمعتها مذهولة، فدلتني على أن بدّوراً ليس الأعجوبة الوحيدة. في قهوة الملايين. . . فإذا شئت سماع بعضها فاسمع، يا سيدي، وتمتّع. . .

ـ قطعة الأرض، التي كنت ازرعها «بقدونس ونعناع» بعتها بسعر لا بأس به. . . أربعة ملايين.

ـ واخجلتاه!. . زودة زوجي الوافرة الفاخرة. . . مائتان. . . مائتان فقط من الليرات الذلولة الخجولة!. .

ـ سنكري يا أم الخدود. . . سَبَّاك. . . طول عمرنا قبل الحوادث، كنا نراه يداعب «الحنفية»، والحنفية تداعبه. . . لمسته عصا الفوضى السحرية الحربية، فأصبح «ملتزم ورشات كبرى»، وهو الآن لا يدري اين يخبّيء أمواله. . .

●

ـ وزوجي أبو الخدود يا جماعة؟.

ـ ما به زوجك يا مدام؟.

ـ أنا لا أقول إنه أفضل من السنكري والقزّاز، ولا من أبي علي البزاز. .. ولا أرفع من شيخ العتّالة، ولا «ميّ كَحّالة».

قد يخدم هؤلاء الوطن أفضل مما يخدمه زوجي. . . ولكنه هو أيضاً

ابن حواء وابن آدم... وله العقل النيّر، والثقافة الواسعة، والأخلاق السامية... فماذا ينقصه يا ناس، حتى ينال ما ناله، هذا وذاك وذيّاك؟.

ـ ماذا تقصدين في عمق كلامك يا أم الخدود؟.

ـ أقصد القول، أن هناك مشكلةً اقتصادية اجتماعية كبرى، طرحتها أحداث الحرب، على ساحة الوطن... والمطلوب الآن حلّ سريع لها...

●

حضرات المسؤولين... أُصبّحكم وأُمسِّيكم، بالخير... لا تُواخذوني. دعوني أُكلّمكم الآن مباشرة... وليس بالتسلسل الإداري، كما تعوّدتم، وأحببتم... حرصاً على ألا يكلمكم فيزعجكم أكثر من صوت واحد... هو صوت الذي يليكم انخفاضاً في الهرم الإداري... وهو الذي تُحْكِمون قبضتكم الحديدية، حول رقبته، مباشرة وبالتسلسل الإداري... فلا يَرفع لكم من الكتابة والكلام، إلا ما يناسب المقام...

يا حضرات المسؤولين... لم آتِ الآن لاحمّلكم مشكلة فوق مشاكلكم... عارفة أنا، يا من تقبرون عظامي إن شاء الله، كم أنتم حاملون هموماً...

لكنني أرجو أن تسمحوا بالإستماع إليّ... وأن تسجلوا على جدول أعمالكم، المشحون كالعادة فوق طاقته، بجليل الأعمال، هذه الملاحظات، ليس كُرْمَى لعينيْ مدام أبي الخدود، صاحب الدخل المحدود، ولكن كُرْمَى لعين انسجام وتكامل وتناسق المجتمع اللبناني... وبالتالي، كُرْمَى لعين ديموقراطيته الفخورِ لبنانُ بها، دائماً وأبداً...

الأحداث الأليمة، عصفت بهيكلية المجتمع اللبناني، الذي عرفناه حتى

اليوم... غيَّرَتْ بنيته، فأصابها ما يصيب أصناف «شوربة الخضرة» في قِدْر يغلي.

فئة من فئاته لم تُعَدَّ اعداداً جيداً للعيش فوق، فجأة صارت فوق... وفئة لم تعرف، ولم تتدرب بعد، على العيش تحت... فجأة صارت... تحت...

أنا أتكلم اقتصادياً حقاً... لكنني حين أتكلم اقتصادياً، فكلامي يعني أيضاً، اجتماعياً...

هُوَّات وهوّات عميقة وواسعة، وُجِدتْ فجأة، بين فئات اجتماعية، كانت حتى البارحة، متكاملة متلازمة...

الأحداث حصدت الناس حصداً... لكنها أيضاً امطرت الناس ذهباً وفضة...

من حمل الـ «إحِمْ إحِمْ» والـ «كالابالك» تجرّأ على والوقوف، محميّاً بسلاحه، تحت ذاك المطر، فجمع الخيرات والبركات...

أما المثقف، وأما الموظف، وأما الخلوق، وأما القائل: هذا حلال وذاك حرام، وهذا زَيْن وذاك شَيْن...

وأما الذي عاش، وقوته اليومي، إيمان كالحديد، بأن لبنان بلد السلام لا بلد الحرب...

كل هؤلاء... لم يجرؤوا على الظهور إلى ساحة الفوضى والظلم وشريعة الغاب، فلم تصبهم نقطة واحدة من المطر الذهبي الفضي... وفتحوا ـ المساكين ـ اعينهم ليروا البيوت المتواضعة التي كانت تشبه بيوتهم، قد استحالت ناطحات سحاب، استحالت جبالاً ووديانها السحيقة، تلك

البيوت الفاضلة... المرتبكة، المستحيية، المتوجعة بصمت...

أصحاب تلك البيوت... مع من يعيشون؟. وكيف يعيشون؟. مع من سوف يتعاملون؟. وكيف يتعاملون ويأخذون ويعطون؟.

زوجي، تحاور أمس، مع أحد أصحاب ناطحات السحاب تلك. تكلم زوجي بمنطق العدل، أما هو فقد تكلم بمنطق القوة، بمنطق المال القاهر الساحر، القادر على كل شيء حتى على الكرامة، والساخر بكل شيء، حتى بذوي الألباب وألبابهم.

زوجي سكت، وهو ما زال حتى الآن... (يفرم) كلاماً...

زوجي موظف محترم... راتبه الشهري مع التعويضات والزيادة الجديدة ثلاثة آلاف ليرة.

مَنْ كان، حتى الأمس، مثل زوجي أو أقل، لا يرضى، بعد وقوفه بسلاحه، تحت الشتاء الذهبي للحرب، لا يرضى عشرة أضعاف راتب زوجي مدخولاً شهرياً.

راتب زوجي، لا يكفي، بعيد الشر عنه، إجراء جراحة بسيطة. لا يكفي نفقة اختصاص ولد من أولادنا، في الجامعة، في فرع علمي عصري...

واحسرتاه على طموح زوجي الذي اندثر!...

حين تزوجنا، ياما ثرثر خلف أُذنيّ، بعبارات طموحة حالمة وصلت عنان السماء.. فجعلت أولادنا قادة للبلاد أفذاذا.. ورافعين إلى العلاء، كل اسرتنا، بطوناً وأفخاذاً.

زوجتي العزيزة... سوف اخصص أولادي اختصاصات، تساهم بنقل وطننا من عصر التخلف، إلى عصر نهاية القرن العشرين، وتساهم في نقل

اسرتنا، من حياة الكفاف، إلى حياة الرخاء والتنعم بأطايب هذه الدنيا.

زوجي هذا، طموحه الآن لا يزيد عن النضال، من أجل تأمين الطعام والشراب والسكنى، لاسرتنا الكادحة.

أما العلم والاختصاص، فصار ثانوياً، أما الليسانس في التاريخ والجغرافيا أو الآداب أو الفلسفة، فسوف نلحق بها عاجلاً أو آجلاً. فما الداعي للسرعة؟.

على كل حال حين نحمل هذه الليسانس، سوف ننتظر سنوات من المظاهرات الطلابية، لإيجاد عمل لصاحبها، يجنبه الموت جوعاً...

●

يا حضرات المسؤولين!... المشكلة تحتاج إلى حل... تحتاج إلى خطة وبرنامج تنفيذ... ليس فقط من أجل مكافأة المواطن المؤمن بلبنان المحبة والسلام... بل من أجل مجتمع لبنان الجديد الذي نحلم به... المجتمع المتوازن المتكامل المتناسق و... بالتالي: المستقر... مجتمع الديموقراطية التي أول من نادى بها، في منطقة الشرق الأوسط، لبنان، ونادى معها بالمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص، ووقوف كل لبناني على الدرجة، التي تتلاءم مع قلمه المُبْدع، لا مع سيفه القاهر، في السُلَّم الإجتماعي.

٤ ـ الباب المعطل

ـ زيزو... اضحك معي يا زيزو... لالا... لا ضرورة لأن تعرف السبب... اضحك وحسب... اضحك بلا سبب، وأعاهدك ألا أدعوك قليل الأدب.

ماذا؟. حسناً لا تغضب... سأكف عن الضحك مؤقتاً، لأقول لك السبب... سيدي زيزو... أنا أضحك أولاً من غباء المدعية بأنها أذكى الأذكياء... عنَيْتُ حضرة جنابي.

ثانياً، أنا أضحك إعجاباً بذكاء الحرامي، ومعاون الحرامي، بطَلَيْ قصتي المضحكة حتى البكاء. هيه؟.. طيب طيب... سوف أحكي الحكاية من أولها إلى آخرها... لماذا أنت دائماً بصلتك محروقة؟.

م م... تسألني عن خبر غبائي وعن ذكاء الحراميَّيْن... وكيف كان ذلك؟. فإليك يا زيزو كيف كان ذلك.

●

كان ذلك، يا سيدي، كذلك:

بعد أن اشتريت ذلك الفستان، الذي يا ليتني مت قبل أن اشتريه، من أحد مخازن شارع الحمراء، وقفت على الرصيف، انتظر سيارة سرفيس أو سيارة أجرة.

السيارة لم تتأخر، وسرعان ما شرّفتني بحضورها، وليس فيها إلا

سيّد... لا سوَّدَهُ الله[1]، بل سوّد وجهه، يجلس في المقعد الخلفي الفسيح.

صعدت السيارة، وجلست في المقعد الخلفي، واقفلت الباب فما انقفل... نعم... اقفلته فلم ينقفل... ومع ذلك فقد انطلقت السيارة في سيرها...

الباب عتيق، وبدا لي أنه معطل... حاولت اغلاقه من جديد فلم ينغلق، حينئذٍ تدخل السائق وقال لي بكل تهذيب:

ـ يا مدام، امسكي الباب بيديك الاثنتين، واجذبيه جذبة قوية فينقفل.

مدامتك الغبية، يا زيزو بن هنيّة، أكلت الطعم، فوضعت ما تحمله جانباً، بينها وبين سيد المقعد الخلفي، لا سوده الله وسوَّد وجهه، لتفرغ يديها الاثنتين، وتستخدمهما في قفل الباب، عملاً بتوجيهات سائق السيارة، ساقه الله إلى جهنم وبئس المصير... وبين ما كانت تحمل ـ واحسرتها! ـ محفظة نقودها... نعم نعم، محفظة نقودها...

يا زيزو يا عزيزو... رحت بيديّ الفارغتين من كل حمل اعالج الباب المعطل حتى يقفل، فلم يُقفل. وتطلب الأمر مني محاولات عديدة، تطلبت، بدورها، عدة دقائق، كانت كافية لإجراء ما جرى، من جانب السيد المحترم، لا سوّده الله وسوّد وجهه وقفاه.

لكن... لندع ما جرى، ونكمل قصة الباب وما حولها... السائق «الشهم»، نتاج الحرب، والحريص جداً على سلامتي وحياتي، صار يشتم الباب ويسبّ أهله وأجداده، ثم طلب مني أن أنزل من السيارة لآخذ سيارة أخرى أبوابها سليمة، ومؤهّلة لحفظ سلامة الركاب...

أما أنا... قال الملعون ابن الملعونة... أما أنا فسأوقف العمل

---

(١) سوَّده الله: جعله سيّداً.

وأذهب إلى أقرب حداد سيارات، كي أصلح الباب، واتخلص من خوفي على ركابي الأعزاء، من هذا الباب المسكون بالعفاريت...

مدامتك يا زيزو، ذابت أعجاباً، ويا ليتها تبخرت، بشهامة هذا السائق، الحضاريّ جداً، والذي يبشّر بأن لبنان، المدمر بالحرب، والمكائد وخبائث الأخلاق والعقول، سوف يعود بلد الحضارة، بلد الإشعاع والنور، على أبعد تقدير، بعد أن يصلح ذاك السائق باب سيارته.

ونزلت من السيارة، وأنا أردد عبارات الشكر والإمتنان للسائق اللطيف الهمام، وحتى للراكب في المقعد الخلفي، الذي خُيِّلَ إلي، أنه أهتم بتنظيم اغراضي وحوائجي، بينما كنت أعالج الباب لأقفله.

نزلت من السيارة ووقفت انتظر سيارة أخرى... لم تتأخر هذه أيضاً عن الوصول، فدخلتها لأكون الرابعة بين ركابها الثلاثة...

●

سارت السيارة مائة متر، فمددت يدي بحركة روتينية إلى حقيبتي لأخرج حافظة نقودي، كي أعطي السائق منها، الليرة، أجرته...

وصاعقة صعقتني يا زيزو... ماذا حدث؟. حدث ما لم يكن بالحسبان... حافظة النقود طارت من الحقيبة... من طيَّرها ومتى طارت؟. وأين هبطت. وكيف كان مُجْرَاها ومُرْسَاها؟؟... الله وحده العالم بذلك...

يا ناس يا هو!! لقد سرقت... النجدة النجدة!! لقد سرقت.

هكذا صرخت مفجوعة، فانهال السائق والركاب عليّ بالأسئلة: أين كنت؟. ومع من مشيت؟. وهل كنت في سيارة أم على رصيف؟.

وأوقفت الأسئلة بأن حكيت لهم، بكل براءة، حكاية السيارة الأولى وبابها المخلوع وسائقها وراكبها...

وصرخ السائق بأعلى صوته:

ـ وقعت في فخه، ابن الحرام!!.

ـ ومن هو ابن الحرام يا ابن الحلال؟.

ـ هو السائق الحرامي يا سيدتي، الذي عطّل بابه، كي تحاولي اقفاله بيدين فارغتين، وحسب خطته الشيطانية الذكية رميت بحاجياتك على المقعد، لينشل شريكه الحرامي الآخر في المقعد الخلفي، حافظة نقودك، بينما يكون اهتمامك كله، منصباً على كيفية اقفال الباب الذي لا يقفل.

ـ بديع! بديع... وماذا بعد يا ابن الحلال؟.

ـ والسيارة، ليست عمومية، لكن الحرامي، صبغ لوحتها باللون الأحمر، حتى يطمئن الركاب الضحايا إليها، فيستقلوها واثقين من نزاهة سائقها وانضباطه في مهنته.

ـ يا لإعجابي الكبير بسيناريو هذين اللصين؟. ويا لإعجابي الأكبر بأدائهما لهذا السيناريو، بكل هذا الإبداع والإتقان.

ـ نعم اتقنا السيناريو، واتقنا الأداء... لكن ذلك الإتقان، لم ينفعهما طويلاً، لأن طريق الباطل مسدود ولو طال... فها هما اللصان اليوم صارا معروفين.

ـ صحيح.

ـ وأمرهما صار مفضوحاً، والشرطة الآن تتعقّبهما للقبض عليهما.

●

وانتقلت أنا من سماع هذا الحديث، إلى المسألة التي تهمني مباشرة:

ـ والليرة، اجرتك يا ابن الحلال، كيف أحصل عليها الآن، وليس لدي حافظة نقود.

ـ تحصلين عليها بكل سهولة... هه، هذه ليرة، أُخْرِجها من جيبي هذا، وأضعها في جيبي ذاك، وأقول: هذه من سيدة محترمة، مال عليها الدهر، في صورة باب سيارة معطل، فسلبها مالها...

ـ حييت أيها السائق... صورتك المشرقة في عيني، كسفت الصورة السوداء للسائق الآخر، فلم أعد أراها وعدت أؤمن بالإنسان، شهماً نبيلاً طاهراً...

ـ يا أختاه! الناس للناس ساعة الضيق... ما فعلته لا يذكر... فيا ليتك تمنحينني فرصة تقديم عون أكبر، قد تكونين في حاجة إليه حتى تبلغي منزلك بأمان.

●

شكرت ذلك السائق الذي أعادني من طريق الكفر بالإنسان، بعد أن مشيت فيه خطوات، وبعد أن صممت على الكفر بالإنسان عامة، وخاصة بالرجل، الذي يتنازل عن رجولته وعنفوانه، ليتجند مع نذلٍ مثله، للسطو على حافظة امرأة ليس فيها إلا دراهم معدودات.

والآن... هل تسمح لي بالبكاء قليلاً يا زيزو؟. على ماذا أبكي؟. على الدراهم المعدودات، على المائتي ليرة نقداً وعدّاً... التي ذهبت مع الريح..

شكراً زيزو... لا أبكاكَ الله على غالٍ أو غالية مثلي... والآن اسمح لي أن أبعث بهذه الكلمات الرقيقة الهادئة، إلى سائق سيارة الباب المعطل...

●

يا هذا الحرامي!. ويا معاونه... هتلر ظل يصب فوق لندن قنابله المدمرة وصواريخه الحارقة، تسعين يوماً بلياليها ونهاراتها... صمدت لندن، وخرجت من المحنة رافعة الرأس... اتعرفان السبب؟. السبب هو

تماسك أهلها وتعاونهم، ومساعدة بعضهم لبعضهم الآخر، طيلة محنة التسعين يوماً. . .

يا هذا الحرامي ويا معاونه! . . . المحنة تضغط على عنق لبنان منذ ألف وخمسمائة يوم تقريباً، وليس فقط تسعين يوماً. . . وقد تظل تضغط سنوات وسنوات. . . فكم نحن محتاجون، والحالة هذه، إلى التعاون والتكاتف ومساعدة بعضنا البعض، لنظل صامدين؟.

يا هذا الحرامي ويا معاونه! . . . خطتكما التي نفذتماها، خسّرتني مبلغاً من المال، أنا في أمس الحاجة إليه، على قلّته، في هذه الأيام الحالكة السواد، وخطتكما التي نفذتماها، ظلمتني، وأقامت حاجزاً من الكراهية بيني وبينكما. . . والتخسير والظلم والكراهية، هي ثلاث طعنات نجلاء، في قلب صمودنا، وتماسكنا، ومقاومتنا للفتن الوافدة علينا والمؤامرات. . .

يا هذا الحرامي ويا معاونه! . . . إذا ضعفت مقاومتنا انهار صمودنا، وإذا إنهار الصمود، عمت البليّة والبلاء، وعندها لن ينفعكما لا المائتان من الليرات، ولا ذهب قارون وماسه ونفائسه. . .

يا هذا الحرامي ويا معاونه! . . . هل فهمتم كلمة من هذه الكلمات؟. يقيني أن لا. . . لا لم تفهموا واحدة منها. . . لأن البهائم لا تفهم كلام البشر.

لكن كلماتي هذه لم تذهب هباء. . . لقد سمعها أبناءٌ للوطن نبلاء، وفهموها، وعرفوا أن واجبهم، كما واجب كل إنسان، أن يعزلوا الحيوان المتنكر في جسد إنسان، ليحاصروا شره، فلا يتسلل إلى وجه الإنسانية الجميل، فيشوهه.

٥ ـ صفيق

قرأت في إحدى النشرات «السايكوسوسيولوجية» تعريفاً طريفاً بـ «الصفيق». وكان التعريف مفصلاً، وافياً، وذكياً. فقد رسم شخصية وسلوك الصفيق من كل جوانبهما، حتى بلغت المواصفات المرسومة، العشرات.

لكن مواصفتين اثنتين، اجتذبتا اهتمامي. وأثارتا حماسي للتعريف.

أولاهما أن الصفيق، يتفانى في موالاة من ينتفع به، ويتنكر حتى العداء الحاقد، لمن يحجب عنه هذا النفع...

وقد يمارس الصفيق الموقفين مع الشخص الواحد... أي أنه يرفع هذا الشخص، بالمديح، إلى أعلى عليين، في عهد فيضه وعطائه، ويهبط به، إلى أسفل سافلين، بُعَيْد اللحظة التي يدرك فيها، أن الفيض نضب، والعطاء توقف.

وثانية المواصفتين اللتين اهتممت لهما في التعريف بالصفيق، هي أن الصفيق يحمل سيف الصاعد، فينافح به عنه، ويكافح صادقاً من أجله، كأن يجود، مثلاً، في سبيله، ببعض التضحيات... لكنه يصبح، أول من يدوسه بنعلَيْه، إن سقط أو هبط من عليائه، لا بل قد لا يتورع عن استخدامه، متراساً أو سلماً يرتقيه، ليصل إلى يد الصاعد البديل، كي يزرعها بقبلات التوسل والتذلل...

مواصفتان رائعتان!!.

وروعتهما نابعة من أنهما منتشرتان في مجتمع الحرب، في دولة المسلحين، انتشار الخلق الرديء، يضرب المائة، فلا ينجو من اصابته، إلا نسبة عدد أصابع اليد الواحدة. . .

●

حملت المواصفتين هاتين، أمس، كما تُحمل أجزاء ثوب مفصّل، ورحت بالذاكرة والمخيلة، ابحث لهما، بين مَنْ عرفتهم في هذا الزمن الرديء عن امرىءٍ، إذا ما قاسهما كانتا على مقاسه. . .

أتدري؟ . والله لم تَخْطُ مخيلتي، بين أطياف مجتمعي القريب، خطوات، حتى وجدت للثوب صاحبه.

بل أزيدك صراحة فأقول: وجدت للثوب أصحاباً. لكنّ واحداً منهم حظي بالأفضلية. . . ولنسمّه، منعاً للإلتباس، وحرصاً على الوضوح: «فلان»!! . . .

لفلان صديق قديم اسمه «علاَّن». علان هذا كان فيما مضى محامياً ناشئاً. . . لكن الزمن يمضي ويظل الناشيء ناشئاً. . . ويمضي زمن آخر، فيكتشف علان كما يكتشف فلان. . . أن علان ناشيء دائم. . . أو، بتعبير مركّز مباشر. . . فاشل دائم. . .

ماذا أقول؟ . فاشل دائم؟ . استغفر الله! . ما بي نسيت أن هناك ساحراً اسمه الحظ، إذا مسَّ بعصاه السحرية، حجراً صاز بشراً، صار متحركاً في مرونة الغصن الرطيب وليونته.

ما إن لمست العصا السحرية «علان» حتى انتفض مارداً خَرَج من قمقم. . . حتى انطلق إلى العلاء بسرعة الصاروخ، واستمر يعلو حتى صار

من البارزين المسؤولين، في دولة المسلحين، المُرْتَدِين اعبية الملائكة البيضاء.

●

ما قولك في علاّن يا فلان؟.

ويستشيط فلان غضباً، ويشرع في نفث حممه، تنفيساً عن براكين تغلي في صدره، من علاّن وعلى علاّن:

«الفاشل، المأجور، الخائن، القابع في جزمة فلان، اليد الشريرة السوداء للمخابرات الأجنبية. عدوّ الوطن وخائنه الأكبر، البالون المدهون المأفون، الذي يتضخم كلما نفخ فيه، لكن رأس دبوس كفيل بتنفيسه، كي يصبح جلدة مطاط ممزقة، مطروحة في قناة موحلة، جانب الطريق».

وعشتُ اسمع هذه المعزوفة شهوراً... قبل أن اسافر إلى الولايات المتحدة، لأمكث فيها أيضاً شهوراً...

●

لكنني حين عدت سمعت، بل رأيت العجب العجاب... والعجب بدأ بالسؤال القديم إياه وذاته:

ما قولك بعلاّن يا فلان؟..

ـ علاّن عبقري، علان حامينا... علان حارسنا، ليوم الشدائد لا إنسان كعلاّن. للمحن علاّن المدّخر، علان بيّض وجه الطائفة بعد اسوداد، علاّن رفع اسم العرب بعد انحطاط... والإسلام أعزّه الله بعلاّن بن فليتان... ووو....

و . . . أوقف فَمِي المغفور دهشةً، سيلَ المدائح العَرِم، المتدفق من فم فلان . . . وسألني:

ـ لماذا تفتح فمك مدهوشاً هكذا؟ .

ـ سل نفسك يا فلان لماذا؟ .

ـ إسأل نفسي؟. ولماذا أسألها وعلاّن كالشمس يتألق نوراً ووفاء وذكاء .

ـ لكنه بالأمس، كان فاشلاً على لسانك، خائناً في خيالك، يداً شريرة سوداء في عقلك ومنطقك . فماذا حدث؟ .

ـ في الحقيقة، لم. لم يحدث شيء. إنما الذي حدث إنني تسرعت قليلاً حين هاجمته في الماضي وجرّحت فيه، وهو أيضاً لم يكن واضحاً في عينيَّ الوضوح الكامل .

ـ والآن . . . كيف تمّ الوضوح الكامل؟ .

ـ تمّ الوضوح، حين التقطت منه إشارة إيجابية طيبة، أظهرت صلاحه وشهامته، وعقله الفذ . . .

ـ ما الإشارة الإيجابية الطيبة بربك يا فلان؟ .

ـ لقد . . . لقد اقترح اسمي لدى رئيس شركة، لأكون أحد مستشاريها، وبراتب سخي .

ـ ها. المستشارية والراتب السخي، دلاّك على أن فلاناً فذ شهم صالح .

ـ فعلاً . . . وأنت ألا ترى معي ذلك؟ .

ـ طبعاً. . . وكيف لا؟ يا. . . يا. . . يا صفيق. . . يا كبير الصفقاء!.

لا لا. عفواً. . . لقد أخطأت. . . كبير الصفقاء هو مَنْ أَمَّنَ لفلان، المستشارية ذات المرتب السخي، ليقطع لسانه البذيء المرّ، ويزرع مكانه اللسان العسلي، لسان الكذب والنفاق، تشجيعاً للصفاقة، وتكثيراً للصفقاء، في زمن الصعود العشوائي المذهل، وزمن الهبوط العشوائي المريع. فهذا الهبوط وذاك الصعود، هما النقيع الأمثل، الذي تغتذي به جرثومة الصفاقة، فتتوالد وتتكاثر.

٦ ـ مسز كِلِنْكِي

ـ أوه «ماي غاد»! أَيْ (آه. . . ياإلٰهي)!.

هكذا صرخت مسز كْلِنْكِي. حين قدمت لها ابنتي هديتها اللبنانية. ودمعت عيناها واردفت:

ـ لم أفعل لك شيئاً يا ابنتي يستحق الهدية. . .

والهدية ـ الصدمة، لم تكن أكثر من غطاء طاولة من قماش، طوله متر ونصف وعرضه متر واحد، مطرز الأطراف على الطراز العربي.

أما ثمنه، الذي يبدو أنه فاق كل رقم، تعلمته مسز كلنكي من درس الحساب، خلال دراساتها المديدة المتنوعة، هذا الثمن لم يتعد الليرات الثلاثين أو الدولارات الثمانية.

قياساً على هذا الثمن ـ المرتفع في نظر مسز كلنكي ـ نستدل على أن الخدمة المتواضعة، التي أدتها إلى ابنتي، هي دون هذا التمني بكثير، وبكلمة أخرى. . . هي خدمة لا تستحق أن تذكر، فكيف تستحق أن تشكر بهدية؟.

فما هي هذه الخدمة؟.

●

حتى لا أثير فضول قارئي العزيز طويلاً، وحرصاً على الدقة في تحديد الأشياء بأحجامها، نتعرف إلى الخدمة، من رسالة وصلتني من ابنتي المسافرة منذ أسابيع، إلى غربة الغربات. إلى الولايات المتحدة، لكي تتابع دراستها

الجامعية. بعيداً عن نيران الحرب، المتأججة في لبنان، أواخر السبعينات من هذا القرن. . .

«والدي العزيز. . .

مسز كلنكي. . . أول وجه باسم حنون، رأيته بعد هبوط طائرتي، عابرة القارات، في بلاد الغربة الموحشة. . .

مسز كلنكي تطوعت منذ لحظة وصولي، لتكون لي، عوضاً عن أهلي، أهلاً. . . وعوضاً عن وطني، وطناً. . .

قدمت لي بيتها حتى صار لي بيت. . . كافحت، في نفسي، مرض الحنين، الذي يصيب كل مغترب في بداية اغترابه. . . والذي تُشوَى عادة بناره شيّاً، الفتاة الشرقية، المفارقة لأول مرة، بيتاً محافظاً، وأهلاً رحماء، والتاركة وراءها وطناً يحترق، بجحيم الفتن والمؤامرات والمحن. . .

مسز كلنكي يا أبي، جمعت حولي منذ أول يوم مضى على وصولي، كل الطالبات والطلاب الوافدين من لبنان والبلاد العربية والآسيوية. . .

لماذا؟.

لكي تجعلني أعيش، في جو يشبه إلى حد بعيد، الجو الذي افتقده، جو بلادي. مسز كلنكي، دعتني ـ أنا البنت المحافظة الخجول ـ إلى الوقوف على منبر الأمريكيين، لأخطب فيهم، لأحاضر عن لبنان وقضيته، وعن المؤامرات التي تحيق به، وتستهدف سمعة شعبه الحضاري الأصيل. . .

مسز كلنكي يا أبي، ساعدتني، كل مساعدة، في دخول الجامعة، بمعنويات عالية، جعلتني، أحصل ـ منذ الفصل الأول ـ على علامات أثارت إعجاب الأجانب، أساتذة وطلاباً.

مسز كلنكي يا أبي. . . ».

ولم استطع أنا هنا الصبر، فهتفت مقاطعاً الرسالة:

ـ كفى كفى يا ابنتي. . . لأنك إذا أكملت تعداد هذه الخدمات، فسوف تدفعينني دفعاً، إلى شراء كل أغطية الموائد في لبنان، لأبعث بها هدية خجولة إلى مسز كلنكي!.

●

عزيزي القاريء. . . هذه الخدمات الجلى. . . أي والله جلى. . . هذه الخدمات التي لا تُقَدَّر عندي، وعند ابنتي، بثمن. . . لم ندفع ثمنها. . . أي ثمن. . .

هذه الخدمات الجلى. . . كانت هكذا. . . مجاناً، لوجه الله. . . والحضارة. . . والإنسانية. . . والتاريخ. . .

وحين جئنا نقدم، بثلاثين ليرة من الورق لا من الفضة، رمزاً لشكرنا الجزيل عليها، شهقت صاحبتنا، وبكت تأثراً وفرحاً، وقالت:

ـ «ما عملت شيئاً يستأهل الشكر. . .»

ـ يا مسز كلنكي. . . آيم صوري (I am sorry) كل هذه الأشياء العظيمة الكريمة، التي قدمتها. . . لا تستحق الشكر؟.

ـ أوه ماي دير. . . الخدمات التي قدمتها لابنتك. . . ليست سوى واجبات ضيافة. . . وهي ليست مني وحدي. . . بل من شعبي أيضاً، ومن دولتي. . . الضيافة عندنا مبرمجة. . . مبرمجة ككل شيء في حياتنا. . .

استقبال الطالب، إذا طلب منا أن نستقبله لعدم معرفته المسبقة للبلاد، يجري حسب خطة اشتركت الدولة في وضعها، مع متطوعين من أفراد

الشعب، لأداء هذا العمل. وهدف هذه الخطة يقول:

«استقبال الأجنبي والإحتكاك به، يوجد فرصة ملائمة للتبادل الحضاري والفكري، بين بلدكم وبلدنا...»

وارشاد الطالب إلى جامعته، وتركيز حياته الجديدة، في الوقت الذي يكون فيه بأمسّ الحاجة للإرشاد والتركيز، يجعلني أكسب صداقته... ورابطة الصداقة الشخصية بيني وبين الطالب، لا بد أن تتطور، وتصبح رابطة صداقة عامة، صداقة شعب مع شعب، صداقة دولة مع دولة.

وعلى جسر هذه الصداقة، يعبر التفاهم بسلام وهدوء... والتفاهم يؤدي إلى السلام والإزدهار الثقافي والإقتصادي... والحضاري، آخر المطاف.

إذن، ماي دير، حين أخدم أنا ابنتك، استفيد، أخدم إنسانيتي أولاً، وبلادي ثانياً، وثالثاً أخدم السلام والتواصل بين الشعوب.

أوكي مسز كلنكي، ثانكيو على هذا الشرح الذكي واللطيف... والآن... أقول لك... غود باي... وداعاً... وداعاً...

•

قارئي العزيز... قرّب أُذُنَك من فمي لأهمس إليك بكلمة... حسناً شكراً... أتعرف لماذا شكرت المرأة وودعتها؟. حتى لا تسمع ما سأقوله لك... لأني، إزاء ضيافتها السخية البعيدة الأهداف، تذكرت بعض أنواع الضيافة، غير المبرمجة طبعاً، وغير الذكية، وغير اللطيفة و... أخيراً، غير المُأَنْسَنَة» إذا صح التعبير...

تذكرت مثلاً، غرسون المطعم في بلادنا، الذي يستقبلك، عند الباب،

بابتسامة ملائكية وبانحناءة عود الخيزران، ثم يودعك، إذا لم (تبحبحْ) له «البخشيش»، بتكشِيرة ألف شيطان، متكافلين متضامنين. . .

تذكرت «المضياف» الذي فلسفة ضيافته: «أطعم الفم تَسْتَحْيِ العين». وتطبيقاً لهذه الفلسفة، يدعو صاحبه اليوم إلى غداء بمائة، ليدفّعه غداً عشرة آلاف. . .

وأخيراً تذكرت نكتة سائق التاكسي المشهور، الذي نقل السائح الأجنبي إلى ساحة متحف بيروت، وأشار إلى الأعمدة الأربعة المنصوبة هناك وقال له: «هذه هي قلعة بعلبك».

وقبض منه بكل طمأنينة واعتزاز، اجرة التاكسي عن زيارة بعلبك. بالإضافة إلى الرسوم والنفقات والعطل والضرر.

●

«والدي العزيز. . .»

تكمل رسالة ابنتي:

«لقد نسيت يا أبي أن أخبرك، في مستهل الرسالة، أن مسز كلنكي، هي. . . مقعدة!! . هي عاجزة!! .

هي مصابة بشلل الساقين. . . ووسيلة الإنتقال والحركة عندها، هي «عربة المعاقين»، أو السيارة الخاصة بالمشلولين. . .

كذا؟!! .

●

يا مسز كلنكي. . . اشكري ربك على أنك تعيشين، وتعملين، في ذلك البلد. . تعرفين لماذا؟.

لأنك لو كنت في بلد آخر. . .

أقول: في بلد آخر. . . ولا أحدد أي بلد. . . هه؟.

لو كنت يا مسز كلنكي في بلد آخر. . . فمن يدري؟. قد لا تكونين أيتها البطلة العملاقة، أكثر من امرأة عاجزة، مرمية على رصيف شارع. . . والذباب يلعق أنفها ومآقيها. . . و:

ـ «صدقة لله. . . يا محسنون!!».

٧ ـ سمّاعة ومسدس

في عشوائية الحرب وفوضاها... في أخلاق الحرب ونذالتها... لا رأس فوقه مظلة، تقيه شتاءها السام... حتى ملائكة الرحمة... حتى المستشفيات وأهلها، الشموع الوحيدة التي كانت تنير ليالي الغاب الحالكة، وتبلسم جراح ضحايا كواسره.

قادني انحراف صحتي، ذات يوم من تلك الأيام السوداء، إلى قسم الطوارىء، في أحد أكبر المستشفيات، الذي أدى خدمات طوعية جلى، إلى مَنْ نهشت الحرب أجسادهم...

وعلى مرأى مني ومسمع، حدث ما يلي:

●

عنتر من عناتر تلك الأيام... شارباه يحط النسر عليهما فلا يهتزان... وطول قامة وعرض منكبين، وقميص مفتوح على الصدر و.. مسدس مشكول في حزامه، في نزق واستخفاف بالآخرين...

يقْتحم المشورب، المسلح هذا، بكل هذه المواصفات، يقتحم باب الطواريء، وشاب آخر يتكيء على كتفه، بسبب عَرَج في أحد ساقيه...

عرجه بسيط، الأمر الذي يدل على أن الشاب لا يشكو سوى التواء في قدمه، قد يكون أصابه، وهو يطارد في الشارع، فتاة رصينة فرّت من سماجته...

الأول، صحيح الساقين، دخل وعبس وبَسَر، وتفرس فيمن حواليه من موظفي الطواريء، ثم أعلن عن رغبته السنية:

ـ أريد طبيباً يفحص قدم صاحبي في الحال.

وبكل أدب وتهذيب، أجابته الموظفة المسؤولة:

ـ دع صاحبك يرتاح على هذا الكرسي، ريثما يفرغ الدكتور «إكس» من فحص ومعالجة المريض الذي بين يديه.

أبو الشاربين العنتريين، مهبط النسور والعقبان، لم يقنعه الجواب، ولم يشبعه الخطاب. بخطوات إيقاعية كخطوات زاپاتا في زمانه، اقترب من الدكتور إكس، المنهمك بمعالجة مريضه.. وبدون تحية صباح أو مساء، بادره بالقول:

ـ يا حكيم. صاحبي تعبان وموجوع، ولا يستطيع الإنتظار.

وأجاب الطبيب بنفس أدب الموظفة وتهذيبها:

ـ والمريض الذي بين يدي تعبان وموجوع، بل هو موجوع أكثر من صاحبك. وهذا ما أراه بنفسي كطبيب اختصاصي. حالة صاحبك لا تستدعي العجلة، أو إعطاءه أفضلية على الذي بين يدي.

ولم يُمهل إنسان الزمن الرديء الطبيب، فقاطعه بكل وقاحة:

ـ قلت لك صاحبي لا يستطيع الإنتظار... أترك المريض الذي بين يديك وتفضل افحص صاحبي...

وبُهت الطبيب من لهجة الشاب، وأسرع يلملم كرامته، التي نثرها عنتر هذا الزمان، هنا وهناك، فقال:

ـ ماذا تقصد بلهجتك هذه يا أخ؟.

ـ أقصد ما تفهمه... وأقولها كلمة مختصرة... أما أن تفحص صاحبي وأنت محترم... وأما...

ولم يستطيع الطبيب أن يصبر ليسمع باقي العبارة، فانتهر المسلح:

ـ اعمل معروفاً واحفظ لسانك، ودعنا نعمل بهدوء...

●

قال الطبيب هاتين الكلمتين، اللتين خلتا من كل ما يؤذي مشاعر عنترة هذا الزمان، وعنترة الزمان كان في رأسه كشتبان عقل فطار... وراح يقصف الطبيب بقذائف، لسانه الحارقة الخارقة:

ـ «إن كنت شاطر اطلع برّا... أنا بفرجيك... وَدِّعْ حياتك منذ الآن... سوف اقتلك شرّ قتلة و...».

●

وعلى هذا المنوال ظل يُرغي ويزبد، حتى اختفت نفايات فمه، بين ضجيج الناس، الذين راحوا يهدّئونه، ويتشبثون بيده التي امتدت إلى مسدسه...

ومضى زمن طويل، قبل أن ينجح الناس في تهدئة الرجل، وإخراجه من عيادات الطوارىء.

أما أنا فرحت أبحث عن الطبيب، فوجدته يقف جامداً مطرقاً، وعلى وجهه علامات الأسى والمرارة والإشمئزاز، وقد خيّل إليّ إنني أسمع صوته يتمتم فيقول:

ـ ليتني، بدل التدرب في الطب خمس عشرة سنة، تدربت في فنون

الملاكمة والمصارعة والرماية... لكي القّن هذه الجرثومة الإجتماعية الحقيرة دِرساً لا يُنسى...

هكذا تصورت موقف الطبيب. لكنني تمنيت أن أكون مخطئاً في تصوري...

●

إلا أنني بالرغم من هذه الأمنية، لم أستطيع السيطرة على توتّر عصبي ألم بي، وذلك بسبب المعركة غير المتكافئة، القائمة في بلدي، أينما كان، وفي أي وقت كان، وعلى كل صعيد. معركة العاقل المسالم، مع الجاهل الشرير... معركة المتمدن مع الهمجي، معركة الملاك مع الشيطان. معركة الطبيب الذي يخفف عذابات الناس، في هذه الأيام العصبية، مع واحد ممن صنعوا هذه العذابات أو أحدثوها...

●

أما نهاية الحادثة فقد كانت آلم من بدايتها... وهذه النهاية، عرفتها في اليوم التالي.

عدت إلى قسم الطواريء لآخذ نتائج فحصي المخبري، فإذ بي أرى الطبيب يقوم بعمله بصورة اعتيادية... لكنني شاهدت على جنبه شيئاً غير اعتيادي. شيئاً ناتئاً من تحت سترته البيضاء.

ثار حب الإستطلاع في نفسي، سألت الممرضة، فأجابت:

ـ وما عساه أن يفعل؟. ألا يحتاج في زمن ضياع القيم والأخلاق، إلى حمل مسدس، يقابل به مسدساً عدوانياً، قد يُشهر عليه في أية لحظة؟.

ضحكت عند سماعي أقوال الممرضة، لكنها كانت ضحكة أمرّ من البكاء...

كان ذلك نتيجة تخيّلي الطبيب، يصوّب بيده سماعة إلى صدر المريض ليعالج قلبه... ويصوّب بيده الأخرى، مسدساً إلى صدر معتدٍ عليه، ليسكت قلبه، قبل أن يسكت هذا قلب ذاك.

بحق السماء يا بشر... ألا تنتج هذه التخيلات ضحكات، الدموع أفضل منها وأرحم؟.

٨ ـ سلوم أفندي

ـ هل سمعتم بسلوم أفندي؟. سلوم الموظف العتيق. الأُلْعُبان البهلوان... الذي راح يشتري كيلو عدس من الدكان، فاستغلى سعره، فوقف على مرتفع قبالة باب المحل، و(فَقَع) صاحبه قصيدة توجيهية أخلاقية، دونها معلقة امرئ القيس، بل دونها ألفية ابن مالك...

ـ يا صاحب الدكان!. يا أفْعُوَان!. ألا تذكر ربك الديّان، فترعوي، وتحت لواء القناعة تنضوي؟.

حرام عليك يا هذا، أن تستغل الظروف الصعبة، التي تمر فيها البلاد، وتسعّر البضاعة على ذوقك ومزاجك.

صحيح أن الرقابة عليك، معدومة في هذه الظروف، لكن هل نسيت أن الله هو الرقيب، وهو، في آخرتك، الحسيب؟.

أين ضميرك؟. أين شعورك بالمسؤولية كمواطن، اتجاه الوطن المثخن بجراح الحرب. أنا لو كنت مكانك لخفضت الأسعار إلى النصف... بل إلى الربع... أو ربما لو كنت مكانك، لقلت لأخواني المواطنين... خذوا ما تشاؤن وتبحبحوا وعيشوا... والرزق على الله...

هذا هو سلوم أفندي... سلوم ذاته، الذي تغيّب أستاذ ابنه يوماً عن المدرسة بسبب المرض... فانتظره في اليوم التالي على باب المدرسة... و(فَقَعَهُ) هذه المرة، مقامةً دونها مقامات بديع الزمان الهمداني...

لو كنت مكانك يا استاذ، في هذه الظروف الصعبة، التي تمر فيها البلاد والعباد، لكنت كثّفت حضوري إلى المدرسة وعلّمت التلاميذ ليل نهار. . . لكنت نقلت سريري من البيت إلى الصف، أو نقلت الصف إلى البيت، حتى لا تضيع على التلاميذ ساعة من نهار أو ليل. فكم هم في حاجة إلى العلم الآن، وزمانهم هذا الزمان؟.

نعم هذا هو سلوم الموظف العتيق ذاته، الذي سمع مرة أن فرآناً غشّ الخبز، فتنفّض مثل الديك وصاح:

آخ لو كنت محل هذا الفرّان، في ظروف بلادنا الصعبة، لاستحضرت طبيباً شرعياً، على نفقتي الخاصة، كي يفحص الخبز ويدقق في سلامته كل يوم. . . أخسر قليلاً من ربحي؟. ما هَمَّ؟. ففي غير ذلك كيف أكون نافعاً لوطني، في ساعة محنته؟.

●

- يا جماعة!. ما هذا السلوم أفندي؟. ما هذا الإنسان الهُمَام؟. قمة هو في الأخلاق والمواطنية الصالحة. . . هنيئاً للدائرة الموظَّفِ فيها سلوم أفندي. . . لا بد أنها دائرة نموذجية، من حيث العمل المخلص، والإنتاجية الخيرّة. . .

أنا أعتبر نفسي الآن سعيد الحظ. . . أتعلمون لماذا؟. لأن لي معاملة إدارية، مهمة جداً، وصلت إلى مكتبه اليوم. . . وبما أن هذه المعاملة يرتبط بها مصير ومستقبل ولد من أولادي، فقد طِرْت الآن إلى مكتب سلوم أفندي، وأنا أهتف بمحبة وحماس:

- يا لحظي السعيد، إذ وصلت معاملتي إلى مكتبك يا سلوم أفندي وإنني لمتأكد من أنك. . .

(بدهشة) يا إلهي! . سلوم أفندي غير موجود في مكتبه. . . أين سلوم أفندي يا ناس. . . يا رئيسَهُ. . . يا جارَهُ. . . يا حاجبَهُ! . . .

ـ سلوم أفندي لا يأتي إلى مكتبه.

ـ ولماذا يا حبّةَ عيني؟ .

ـ اسأله هو لماذا؟ .

ـ يا لضياع الأحلام!! .

آلو آلو. . . سلوم أفندي. . .

ـ نعم. . .

●

ـ متى تشرّف المكتب بحضورك.

ـ لن اشرّفه اليوم.

ـ تشرفه غداً حتماً.

ـ لن اشرفه لا غداً ولا بعد غد. . .

ـ ويلاه! . ايبقى المكتب هكذا، بدون شرف أو تشريف يا سلوم أفندي؟ .

ـ كفّ بربك عن هذا التنكيت السخيف.

ـ ولماذا لا تأتي إلى مكتبك يا أفندي سلوم؟ .

ـ أما سؤال! . لماذا لا آتي؟ . . مفهوم لماذا. . . لماذا آتي أنا وغيري لا يأتي؟ .

ـ أنا في الحقيقة، اعتقدت أنك، تختلف عن غيرك يا سلوم أفندي . . .

ـ ماذا تقصد يا هذا؟ .

ـ اقصد . . . اقصد . . . أننا عرفناك قمة في الأخلاق، والمواطنية الصالحة . . .

ـ وإنني لكذلك . . .

ـ الذي «إنه لكذلك» يا سلوم أفندي، يحضر إلى مكتبه ليعمل مقابل راتبه الذي يتقاضاه . . .

ـ لكن غيري يا حبوّب، يتقاضى راتبه وهو غائب .

ـ أنت قمة الأخلاق أنسيت؟ .

ـ دعك من هذه السخافة يا هذا . . . طالما ليس هناك رِنْ رِنْ . فلماذا العمل في الـ . . دِنْ دِنْ؟ .

ـ هاه . . . لادِنْ دِنْ . . إلا بالـ . . رِنْ رِنْ؟ .

ـ طبعاً يا ذكي .

ـ سلوم أفندي .

ـ نعم . . .

ـ لكنني قرأت في الجريدة اليوم أن هناك رن رن لمن يداوم في المكتب .

ـ صحيح؟ . قل لي ماذا قرأت في الجريدة .

ـ قرأت أن الموظف الذي يتغيب عن مكتبه يحسم راتبه .

ـ (خائفاً) كذا؟ .

ـ كذا .

ـ قل لي أيها السيد .

ـ ماذا؟ .

ـ معاملتك التي وصلت إلى مكتبي . . . متى تريد استلامها منجزة؟ .

ـ حين تذهب إلى المكتب . . .

ـ ذاهب إليه الآن . . .

●

وشَرَّف سلوم المكتب بحضوره . . . وبدل أن يخدم الناس المتزاحمين على باب مكتبه، وأنا منهم، لإنجاز معاملاتهم . . .

ـ آلو الكفتيريا؟ . أبعث لي الآن جريدة الصباح، ومعها صحن فول، وبعد نصف ساعة اتبع ذلك بفنجان قهوة سكر قليل . . .

ـ يا سلوم أفندي . . . يا ابن الحلال . . . المعاملة أرجوك .

ـ هلا خرستم يا هؤلاء؟ . أف! . نخرتم دماغي، نخر الله دماغكم . . . هل فرّت الدنيا ومعها معاملاتكم؟ . أنا المخطىء، في الحقيقة، ولستم أنتم . . . أخطأت خطأ جسيماً، حين أتيت إلى هذا المكتب . أليس لي حق في أن آكل لقمتي يا عالم؟ . وأن اقرأ جريدتي، وأن أشرب قهوتي؟ أنا لو كنت مكانكم أيها التتر . . . لوقفت في الصف بنظام وهدؤء وصبر . . . أنا لو كنت مكانكم . . .

ـ اسكت . . . اسكت يا سلوم . . .

ـ هه؟. أنا اسكت؟.

ـ نعم... فَلَقتنا بعبارة «لو كنت مكانكم»، لو كنت مكان التاجر لفعلت هذا، ومكان المعلم لفعلت ذاك، ومكان الخبّاز، لفعلت ذلك... أريد أن اسمعك مرة واحد تقول: لو كنت مكان نفسي...

ـ أولست أنا مكان نفسي؟.

ـ أبداً... لذلك دعني هذه المرة أقول لك: لو كنت مكانك يا سلوم.

ـ ماذا كنت تفعل؟.

ـ كنت أفعل ما أقول... أنت يا سلوم مواطن صالح نظرياً فقط... بالكلام... أنت تاجر مثالي، ومعلم مثالي، وفرّان مثالي، طالما أنت موظف ولست أي واحد منهم... لكنك حين تكون واحداً منهم، فستكون اسوأ تاجر واسوأ معلم واسوأ فران... أعني أنك يا سلوم لن تكون في أي موقع اجتماعي، إلا كما أراك الآن...

ـ وكيف تراني الآن؟.

ـ أراك يا سلوم طفيلياً، عبئاً ثقيلاً معلقاً في رقبة وطنك، المرهق بالأحداث... أراك يا سلوم مرابياً يقبض أموالاً ليست له... يتقاضى راتباً على عمل لم يقم به.

يا سلوم أفندي... أنت في محنة الوطن... ضد الوطن... أنت وأمثالك، مع المحنة، ضد الوطن...

٩ ـ الخروّبة

ـ يا تَعِباً بِحِمْلِ الحياة!... يا مَنْ زرعت الحرب في نفسك، اشواك اليأس... يا مرهقاً بأسعار التجار، أرباب الإحتكار... يا مشككاً بوجود المحبة على سطح الأرض... يا ضائعاً في سراديب دكاكين السياسة... يا خائفاً على وطنك ومستقبلك... يا واقفاً في صف طويل أمام عيادة طبيب الأعصاب...

أترك هذا الصف واتبعني... إلى أين؟. إلى المكان الذي كنت فيه أمس... أينَ كنت؟. اسمع...

●

صباح أمس... تصبح على خير... أفقت من النوم باكراً... كان اليوم يوم عيد... وأنا به سعيد...

الطبيعة أيضاً كانت سعيدة... الطقس رائع... والشمس التي كانت تستعد للشروق من وراء صنين العظيم... وعدتني بنهار دافيء...

ـ قومي يا زوجتي... لقد تعفنّا في البيت... أحس بلاطة ثقيلة تضغط على صدري... هلمي نَقُمْ بنزهة في السيارة... نتذكر فيها صديقتنا القديمة الطبيعة، التي باعد ما بيننا وبينها تجار الحروب... مصاصو الدماء...

أين نتنزه؟. لا فرق عندي... دعي السيارة تقودنا إلى حيث تريد...

ماذا نأكل؟. يا سيدتي. . . نكتفي اليوم بعرائس الجبنة واللبنة.

●

سارت السيارة، بالفعل، على هواها وكأنها هي تقودنا لا نحن. . . بعد ساعة من الزمن تقريباً وصلنا إلى مكان جعل زوجتي تهب فجأة لتهتف قائلة:

ـ زيزو. . . أرجوك. . . قف هنا. . .

الهتاف جمدّ السيارة في مكانها.

ـ ما بك يا. . . مجنونة. . . ماذا حدث؟.

ـ لست مجنونة وسوف ترى. . . هيا انزل. . .

ـ إلى أين؟.

ـ اتبعني إلى حافة هذا الشوار. . .

تبعتها خطوات. . . وهناك وقفت ووقفَتْ، جامدين مدهوشين مسحورين. . .

وقفتنا كانت على مِطَلٍّ عالٍ من مِطَلاَّت ظهر البيدر في سلسلة جبال لبنان الغربية، المطلة من الشرق على البقاع، ومن الغرب على البحر. . .

وقفنا ننظر صوب الشرق. . . وعلى مدى النظر، كان سهلنا المحبوب. . . سهل البقاع. . .

حاولت أن اتكلم فأصف روعة المنظر، لكن زوجتي. . .

ـ صه. . . إياك أن ترفع صوتك. . . السهل ما زال نائماً. . . الشمس تشرق عليه الآن، لتوقظه على مهل، حتى لا ينزعج. . .

فعلاً، لا أنا ولا زوجتي... نبسنا ببنت شفة... لكن عيوننا نبست بالكثير... تكلمت وتكلمت.. مع السهل، والشمس، والجبال الأزلية، الحارسة السهل الأزلي...

ماذا قالت عيوننا؟. هذا سر، بل هذا لغز كبير صعب... لماذا؟. لأن البشر، لم يخترعوا، حتى الآن، ألفاظاً تعبّر عنه...

يجوز أن نسميه السعادة... يجوز أن نسميه هدوء النفس. يجوز أن نسميه الذوبان في بحر السكينة...

ـ هل أنا مجنونة يا زيزو؟.

وردَّتْ على سؤال زوجتي، عيناي، وابتسامتي المسحورة.

ـ كنت العبقرية بعينها يا عزيزتي... حين أوقفتني في هذا المكان الساحر...

●

ركبنا السيارة... وسارت على هواها... عند مشارف شتورة انعطفت إلى اليمين، صوب البقاع الغربي... وبدأ الريف اللبناني الأصيل يقدّم لنا استعراضاته الرائعة...

ضياع نشيطة وبسيطة... جبال وصخور وتلال وسهول، راحت تحدثنا، عن قديم التاريخ، وأحواله وحدثانه...

نصف ساعة مشينا عن مفترق شتورة، وهناك صرخت للمرة الثانية زوجتي:

ـ زيزو... قف...

جمدت السيارة مكانها... ونزلت زوجتي تتبختر على أرض خالية، كأميرة من أميرات الأساطير... اشارت إليّ باصبعها فنزلت وتبعتها.

ـ هنا غاية نزهتنا... هنا قعدتنا... هنا نهاية رحلتنا... ضربتُ أنا كفاً بكفّ، وحلفت باللات والعزّى بأن امرأتي مجنونة.

ـ لماذا تحسبني مجنونة يا... هُبَل؟.

ـ أتُقْعِديننا في هذه الأرض الحفراء النفراء، التي ليس فيها إلا شجرة خروب، تعرَّت من معظم أوراقها... وحولها قليل من العشب الخجول، وزهرة وقحة، نبتت وحيدة فريدة، قبل أوانها... ورُجْمَة أحجار وبعض الصخور؟.

ـ نعم يا سيدي نعم... هنا قعدتنا واصرّ على ذلك...

ـ فهّمني بربك، ما هو السر الذي أتيت تكتشفينه في هذا المكان، الذي هو أفقر من قلبي بالأمل.

ـ زيزو... أنا ما أتيت هنا لأكتشف سراً وحسب. أتيت أكتشف كنوزاً مكتنزة.

ـ كيف بالله عليك.

ـ لن أقول لك كيف... عليك أنت أن تكتشفها وحدك... سوف أعلمك الطريقة فقط لا غير...

ـ علميني يا سيدتي علميني.

ـ اجلس هنا على الأعشاب الخجولة كما أفعل أنا...

ـ جلست.

ـ أسند ظهرك إلى جذع الخرّوبة. . .

ـ اسندت.

ـ استرخ.

ـ استرخيت.

ـ لسانك أوقفه كلياً عن العمل. . .

ـ م م م. . . أوقفته.

ـ استنفر أذنيك وأنفك وعينيك. . .

ـ يا أذنيّ ويا أنفي ويا عينيّ، أفيقي وابدأئي العمل. . . هيه. . . وماذا أيضاً.

ـ لا شيء أيضاً. . .

و. . . سمعنا معاً صوت الصمت. . .

هل سمعت أنت مرة، صوت الصمت؟.

نعم. . . للصمت صوت يملأ النفس مهابة وخشوعاً. يجعلك ترحل بعيداً بعيداً في دهاليز الزمن، ومسالك الأرض الأزلية الأبدية. . . يجعلك تسمع ضجيج أفكارك الصاخبة.

على بساط هذا الصمت، سمعت وقع حوافر الخيول. . خيول جيوش جرارة. . . جيوش غزاة طامعين. . . اقبلوا عليّ في لحظة. . . وغابوا عني في لحظة. . . وبقي سهل البقاع كما هو، يهزأ بمن غزا، وبمن انهزم. . . حتى الزهرة الطرية العنيدة ما انهزت.

وعلى حين بغتة منا، شد انتباهنا حسون، استحسن في هذه اللحظة بالذات، أن يطرّز بساط الصمت، بتغريدة عتيقة، عتيقة جداً، حتى لتتساءل: أيها خلق أولاً، الزهرة أم الشمس أمَ تغريدَة الحسون. . .

لكن لغز التغريدة العتيقة أنك كلما سمعتها مرة، تجدها جديدة وكأنها خلقت لتوها، أو تجد نغماً أو أنغاماً فيها، لم يرصدها السمع المرهف قبل هذه المرة. وخاصة النغم الذي تسمعه، فتطلق فوراً عليه اسم «نغم الحرية».

تركت سمعي يسافر مع الحسون. . . وانشغلت مع أنفي برائحة زكية عبقت في الأجواء. . . فدخلت رئتي، وبلغت كل قطرة من دمي. . . بل كل خلية من خلاياي. . . رائحة الأرض. . . رائحة التراب والعشب والزهر والثلوج. . .

أحسست بأنني، إذا تبددت الرائحة دقائق سوف أموت. . . أحسست أن خلايا جسدي مرتبطة بالتراب والعشب والزهر والثلوج. . . وأن هناك عهداً مقدساً عقد بين الأرض وبين كياني. . . تمدني هي بعبير الحياة. . . وأمدها أنا بالحب والوفاء والإفتداء. . .

عيناي؟! . لا تسل عن عينيّ. . . كانت في هذا الوقت تائهتين في عالم الألوان العجيبة. . . في زرقة السماء المُبَرْوزة من الشرق والغرب بناصع الثلوج، وخضرة الصنوبر والسنديان والشربين. ومن الشمال والجنوب، بالسهل الأزلي، الذي يختفي عن البصر وراء ستار شفاف لا هو سماء ولا هو أرض. . .

والزهرة التي تمردت على الصقيع، تقول لي: والضعفاء أيضاً باستطاعتهم أن يتمردوا. . .

وبراعم الخروبة العتيقة، توحي إليّ بولادة الحياة حتى من الموت...

●

حين نهضت للإنصراف، زوجتي وأنا، استوقفتنا نحلة، منهمكة في عملها، تماماً كما كانت تنهمك قبل السنة الخامسة والسبعين، وقالت لنا: الخامسة والسبعون ليست آخر العمر، ولا نهاية العالم، ولا يوم زوال لبنان.

وكذلك قالت النحلة، والدوري، وصياح الديك البعيد، وضحكة الفلاح من تحت شاربيه الكثيْن... وكلُّها تقول لنا:

مهما حدث ومهما جرى... فستظل الحياة بألف خير... لأن الحياة، أكبر من كل متطاول عليها... لأن الحياة أقوى، حتى من الموت...

١٠ ـ طبيب زوجي

في هذه الغابة الموحشة من الفوضى، التي وضعتنا فيها الحرب، والتي صارت فيها الأخلاق، قَطْعاً نادراً وعملة صعبة.

في هذه المؤامرة التي قُذِفَ بها لبنان، فجعلت من شعبه ألف صنف وصنف.

ومع الأحاسيس المتشائمة التي تنتابنا أحياناً، بل غالباً، لتقول لنا: «إن هذا الليل طويل، وإن صباحه السافر المشرق، سوف يتأخر كثيراً كثيراً».

في عتمة هذه الحالات كلها، قد تعثر بين وقت وآخر، على بصيص من أمل، يطالعك من هنا، أو علامات من تفاؤل، تطل عليك من هناك... عندها، يبرد قلبك المحترق، ويطمئن بالك بعد قلق، وتقول لنفسك:

ـ الدنيا بخير... وستظل بخير... ولبنان سوف يهزم المؤامرة، وسوف تنتصر أصالته، على الكيانات المزيفة المفتعلة...

رمز من هذه الرموز النيّرة بالأمل، هو طبيب زوجي...

نعم... طبيب رافق زوجي، منذ خمس عشرة سنة وحتى اليوم، في أزماته الصحية الكثيرة...

وبعون الله ورحمته، جعله يجتاز هذه الأزمات بالسلامة... لهذا السبب، صار هذا الطبيب، في عين زوجي، كالغذاء... والهواء... والماء...

●

نزلت بالوطن المؤامرة، فصنّفت الناس، ووزعت، وفرزت، وفرّقت.

وحسب قانونها الخبيث، أصبح لزاماً على هذا الطبيب أن يرحل، أن يلتحق بمنطقة، سواد سكانها من طائفته أو مذهبه.

لكن طبيب زوجي، بقي مكانه... في بيته... في مستشفاه... في عيادته...

كثيرون كثيرون. غيّروا بيوتهم واشغالهم.

كثيرون انتقلوا أو سافروا، إما عن واقع مادي، وإما بفعل حادث مؤسف فرضته المؤامرة. وإما بفعل وهم أو خوف، من أذى يحدث، وإما للخلاص من أجواء مكفهرة، لا تقرّ لها العين ولا يركن إليها القلب.

لكن طبيب زوجي، ظل جبلاً عالياً، لا تهزه ريح...

عيادته مفتوحة في أوقات دوامها... ومواعيده في المستشفى، لم يستطع أن يغيرها رصاص الموت، ولا قذائف الإبادة.

ماذا تقول يا صاحبي؟. تقول ربما الذي جمّد هذا الطبيب، حيث هو، أن الطبيب عادة لا يستطيع، إذا انتقل إلى مكان آخر، أن يرتّب أوضاعه المهنية والمالية، كما هي مرتبة هنا؟.

لا يا سيدي لا... ما هذا الذي منع طبيبنا من الرحيل. ولكي تتأكد من ذلك، إليك هذه المعلومات عن كفاءة طبيب زوجي...

طبيب زوجي... استاذ في كلية الطب. ورئيس قسم طبي طويل عريض في المستشفى. وله شهرة محلية وإقليمية وحتى عالمية، تجعله، إذا نزل أرضاً حفراء نفراء، ينتج الذهب من عمله.

أما مهارته كطبيب. . . فعند زوجي، وأمثال زوجي، علمها، وخبرها، اليقين.

●

ذات يوم من الأيام السوداء التي مرت بلبنان، اقتحمنا ـ زوجي وأنا ـ باب عيادته، وقلنا له:

ـ يا حكيم. . . قم وارحل من هنا. . . أُنْجُ بحياتك. . .

ابتسم ابتسامته، التي تؤمّن ـ عادة ـ للمريض ثلاثة أرباع الشفاء، وقال:

ـ لستُ منتقلاً من هنا، طالما أنا شاعر، أن لي دوراً هنا اؤديه. . .

يا حكيم، أرجوك، أمثالك، حياتهم ليست ملكاً خالصاً لهم. . . بل لهم وللمعذبين في الأرض. . . لذلك فواجبك الإنساني الآن، أن تحافظ على حياتك. . . أترك المنطقة مؤقتاً، ريثما يصفو الجو على الأقل.

ومن وراء الإبتسامة الشافية قال:

ـ لا استطيع أن أترك هذا المكان. . . أنا مرتبط فيه بعقد. . .

وصرخت في وجهه:

ـ يا حكيم، مَنْ يسأل، هذه الأيام، عن عقود؟! مزق العقد وامش. . .

ـ عقدي يا سيدتي وسيدي لا يُمَزَّق. . .

ـ لماذا؟.

ـ لأنه ليس من ورق، لأنه غير مكتوب. . بل هو مكتوب، ولكن. . . أين؟. في الروح، في الضمير. . . المرضى الذين وضعوا فيّ ثقتهم، كيف أتركهم في هذه العُسْرة؟.

تلاميذي، مؤسستي التي بيني وبينها عهد مقدس قديم، لا اتركها وفيّ من الحياة رمق. . . كيف اتركها واتركهم؟. أحس هنا بأنني قبطان سفينة، ألم

تسمعي بأن القبطان آخر من يترك سفينته قبيل غرقها؟.

●

وبقي الطبيب مكانه... وصمد في موقعه، كما صنّين صامد في موقعه.

واليوم...

كلما اشتقنا، زوجي وأنا، إلى لبنان الواحد الأصيل، نذهب إلى عيادة ذلك الطبيب ونتطلع، باطمئنان، إلى وجهه...

●

تبقى كلمة صغيرة عن الطبيب العملاق... وهي أنه مرات ومرات، حين كان زوجي يسأله بعد الفحص الطبي:

مُرْ يا حكيم... أطلب وتمنَّ...

يجيب الحكيم: أتمنى سلامتك... تدفع المرة القادمة...

وتمر مرات قادمة ومرات، وزوجي لا يدفع... والحكيم راضٍ... همه أن يرى مريضه يبتسم... وبعدها دفع أو لم يدفع، لا فرق...

●

شكراً يا طبيب زوجي... شكراً يا دكتور إكس... وكم أود لو استطعت أن أسمّيك ـ وأنا أشكرك ـ باسمك، وليس بحرف إكس... لكنني لن أجرؤ على ذلك، لماذا؟. لأني مقتنعة بأن مَنْ وصل إلى مستواك المهني والإنساني... يضايقه الطبل والزمر، وتسيء إلى مشاعره، الدعاوة والإعلان...

١١ ـ الرصاص المتكلم

آه . . . سقى الله تلك الأيام! .

كنا مصطافين في ضيعة جبلية، غِافية على كتف وادٍ ساحر . . .

وسقى الله يوم كنا ـ زوجتي وأنا ـ واقفين تحت شجرة تين، وبيدي بندقية صيد، عيار تسعة مليمتر، أترصَّد بها عصفور تين مدهن. . . وما أن رفعت البندقية، أسدّد فوهتها إلى العصفور، حتى سمعت صوتاً من البستان المجاور، يصرخ مذعوراً:

ـ «إجوا العسكرية!! . . .».

وطار عقلي. . . قفزت إلى علّيقة، دون الإكتراث بأشواكها التي مزقت ثيابي وجلد يديّ ورجليّ. . . وقذفت البندقية إلى جوفها. . . والحقت البندقية بسكين جيب، أعددتها لذبح الطرائد، علماً بأنها صنعت لتقشير الفواكه. . .

عدت إلى زوجتي، وسحبتها من يدها، ورحنا نعدو مسرعين لنبتعد، في أقل وقت ممكن، عن مسرح الجريمة. . .

●

طبعاً. . . بندقية التسعة مليمتر، المعدة لصيد العصافير ليس إلا، هي سلاح ممنوع. . . وكذلك السكين، بالرغم من حجمها الذي لا يزيد عن حجم اصبع يد، كانت سلاحاً ممنوعاً. . . ولذلك فكلاهما كانت العليقة نهاية

مطافه، وأنا وزوجتي نجونا بجلدنا في الوقت المناسب.... وتخلصنا من دفع الغرامة الباهظة، وربما من الحبس...

آه... سقى الله ذاك الزمان!!. كان الإنسان فيه، يعيش بكرامة وأمان تحت جناح القانون، وبين يديه الرحيمتين...

أما هذا الزمان[1] فيا تعاستنا من هذا الزمان!. العصفور... عيب علينا أن نصطاده بغير رشاش الخمسمائة مليمتر... ليس أبداً من أجل مقام العصفور المسكين... بل من أجل مقامنا نحن... فالسلاح يجب أن يكون في مستوى صاحبه... والسلاح ـ كما قال أحد حكماء الحرب ـ زينة الرجال...

●

ضيعة تلك الأيام... أيام الماضي... كنت تنبشها نبشاً، لتعثر فيها على بندقية أو أثنتين من عيار التسعة مليمتر.

واليوم... نادر أن تجد بيتاً خالياً من عدة قطع سلاح خفيف، وربما... ثقيل...

●

إلى هنا تبدو الأشياء محتملة. لكنها تصبح ثقيلاً حِمْلُها، إذا ما أدركت، أن تواجد السلاح يوجب تشغيله.

فإذا لم نجد حرباً، فيها نشغّله، شغّلناه في السلم. واستخدمناه في الأغراض السلميّة، على حد قول دعاة السلام، في وجه دعاة الحرب.

مثلاً... نشغّلهِ ابتهاجاً، ونشغله احتجاجاً...

---

(١) زمان الحرب الأهلية اللبنانية.

نشغّله وسيلة تفاهم بين حي وحي، وبين بيت وبيت.. وربما بين شخص وشخص...

إذا رزقنا مولوداً ذكراً نطلق الرصاص، شكراً وامتناناً... وإذا رُزِقْناها انثى، نطلق الرصاص اعتراضاً واستنكاراً.

إذا تزوج ابن جيراننا، أطلقنا الرصاص، لاقتران زين الشباب، بذات الصون والعفاف. وإذا طلّق ابن جيراننا، اطلقنا الرصاص، لخلاصه من سليلة بيت الفقر والكفاف.

حين يفوز فريقنا في كرة القدم، نطلق الرصاص فرحاً، بالذخيرة الميتة، وحين يفوز الفريق الخصم، نطلق الرصاص تَرَحاً، بالذخيرة الحية... وعندها نضرب ـ كما يقول المصريون ـ «في المَلْيان»، فتتهاوى على أرض الملعب، الأبطال والفرسان.

ماذا؟. ألا تصدق ذلك؟.

وحياة حياتك، إن إطلاق النار بالذخيرة الحية، مع التصويب والتركيز، صار هذه الأيام من مزايا الروح الرياضية...

طبعاً... والروح الرياضية، أليس لها الحق، في أن تتطور هي الأخرى، تبعاً لنظرية النشوء والارتقاء، وسنّة التطور والتغيير؟.

ماذا؟. ألم يبلغ ذلك علمك بعد؟.

حسناً... خذ علماً بذلك، لكي تلبس منذ الآن، قبل دخولك الملعب، خوذتك الفولاذية، وقميصك المدرَّع...

●

نكمل سرد اللائحة فنقول:

إذا توفّي أحد ـ بعيد الشر عنكم ـ اطلقنا له الرصاص أسى وحزناً. . . معلوم! . . يجب أن تصعد روحه إلى السماء بأُبهة، بـ «هيصة» تليق به. . . بتغطية إعلامية واسعة. . . فلعنا بهذه الطريقة، نضمن لها دخولها الأكيد، جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

وإذا سمعنا تصريحاً سياسياً لم يحظ بأعجابنا. . . اطلقنا الرصاص. وإذا قرأنا في الجريدة خبراً لا يُهضَم أطلقنا الرصاص. . . وإذا وقف السير في وجهنا، فتحناه برشق من رصاص. . .

وإطلاق الرصاص، نستخدمه للتفاهم العادي. . . إبن جيراننا، كلما رغب في أن تطل حبيبته من على الشرفة، يطلق من رشاشه الرصاص، فتطل الحبيبة وترد على إطلاق الرصاص، بإطلاق ابتسامة من ثغرها الجميل، وربما «تَصَعَّدَ» الموقف وتطورت الحالة، إلى الرد على كل رصاصة أطلقت في الهواء، بقبلة ترسل أيضاً في الهواء. . .

●

هذه حالتنا يا إخوان. . . رصاص «على الطالع». . ورصاص «على النازل». . نفيق. . . رصاص، ننام. . . رصاص. . . رصاص الصبح. . . رصاص الظهر والعشاء. رصاص قبل الأكل. . . رصاص بعد الأكل.

●

يا حضرات مطلقي الرصاص. . . حرام عليكم. . . هذا الرصاص الذي تطلقونه بسبب أو بغير سبب. . . هو ثروة، أنتم تبددونها في الهواء كما يتبدد الدخان. هذه أموال أنتم تحرقونها، لتتلذذوا بصوتها المزعج، الذي تتقزز معه النفس. . .

يا جماعةَ إطلاقِ الرصاصِ بمناسبة وغير مناسبة.

لماذا لا تعبّرون عن ابتهاجكم بتصرفات حضارية؟.

اشتروا بثمن الرصاص المهدور، أدوات للزينة، وزيّنوا بها منازلكم وشوارعكم، فتكون الزينة أصدق تعبير حضاري عن ابتهاجكم.

اشتروا بذلك الثمن تسجيلات موسيقية، تطلقونها في الأحياء أو الشوارع، فترقّق مشاعركم، وتطربكم، وتهدّيء أعصابكم التي هي ـ بتأثير الحرب ـ في أمس الحاجة إلى التهدئة...

تريدون الإحتجاج؟. عبروا عن احتجاجكم بأساليب حضارية... احتجوا عبر إعلان في جريدة... برسالة مفتوحة مهذبة... بندوة محاضرات... بحوار إيجابي بنّاء...

يا جماعة إطلاق الرصاص!.. وفروا الرصاص ليوم يدعوكم فيه الواجب الوطني، لتدفعوا به العدو عن أرضكم، عن وطنكم، عن بيتكم ونسائكم وأولادكم...

عندها... أطلقوا الرصاص حتى تشبعوا... أطلقوا الرصاص بكل طاقتكم... ودعوني، عندها، اسمع أزيز ذاك الرصاص فأتلذذ به... لأن ذاك الأزيز، ساعتها، سيكون في سمعي، أعذب من موسيقى بيتهوفن وشوپان وتشايكوفسكي...

١٢ ـ الطفولة الضائعة

الطفولة الضائعة المعذبة. وجدتها منذ يومين، عند إشارة سير ضوئية على مفترق طرق.

وجدتها مجسدة بوجه طاهر بريء... وقف وراء زجاج سيارتي...

لم تستطيع قذارة الفقر والتشرد، أن تحجب عن العين جماله، ولا أن تمحو ابتسامة القناعة الساحرة، المرسومة على الوجه الجميل.

أمام هذا المشهد، تحركت عواطفي الإنسانية. أنزلت الزجاج الجانبي، لا لأعطيه صدقة، بل لأعطيه نصيحة.

والنصيحة أن يترك التسول، ويلتحق بأية مدرسة، ليتعلم فيها ما تيسّر له من التعلّم، حتى إذا اجتمع لهذا الوجه العذب، شيء من العلم، وشيء من الذكاء الفطري، المشع من عينيه... كان له من دنياه، ما يضمن عيشه المعقول، بعزة وكرامة...

لكنني لم أكد أفتح فمي، لأُخرج منه نصيحتي، حتى رأيت مشهداً ملحقاً بالمشهد السابق، جمّد الكلمات على شفتيّ... وخيّمت على وجهي سحابة حزن قاتمة... ولم أشعر إلا ويدي تتحرك تلقائياً إلى جيبي، فتخرج منها ليرة، تدفعها إلى الصبي الصغير المنكوب...

●

لم يتناول الصبي الليرة بأصابع، أو يد، أو يدين، بل تناولها بما تبقّى

من ساعدَيْه المبتورَيْن كليهما. . وذلك بأن ضمهما إلى بعض، فالتقط بهما الليرة.

ذهب نصف الساعدَيْن بالليرة، إلى جيب واسع، خِيط حول خصره، لتسهيل هذه المهمة بالذات. . .

نعم. . . تلك هي نكبة الطفولة، حلاوة وذكاء وقناعة، ولكن. . . دون يدين. . .

●

سألته:

ـ كيف خسرت يديك؟.

ـ خسرتهما بقذيفة مدفع. . .

قذيفة من قذائف الحرب القذرة. . . التي قامت بلا سبب ولا هدف، سوى سبب أو هدف واحد. . . تدمير البشر كما الحجر. . .

●

يا طفلي الصغير. . . يا واقفاً عند إشارة السير الضوئية. . . لماذا أشعر أن لك دَيْناً عليّ، وأنه لَدَيْن ـ والله ـ ثقيلَ. . . وانه حتم عليّ أن أفي به لك. .

يا طفلي الصغير!. . يا متسول الإشارة الضوئية. . بالرغم من أنني لم اسبّب لك النكبة، ولا كنت وراء ما حل بك من كارثة. . . إلا إنني مقتنع بأن للطفل ديناً في عنق كل كبير. . . فكيف بحق حلاوة وجهك وعذوبته. . . كيف أفيك دينك هذا؟.

لو وهبتك كل عواطفي، وحتى كل دموعي، فلن تنفعك بشيء.

وليرتي التي دفعتَ بها إلى جيبك الواسع، وحتى ليرة كل سيارة تجتاز الإشارة الضوئية هذه. . . لن تنفعك أيضاً بشيء. . .

بل أصارحك القول، ومثلك لا يُكَلَّم إلا صدقاً وصراحة، إن هذه الليرات، ولو تكاثرت، فهي لا تنفعك، وأجرؤ أن أزيد: إنها تضرّك! . .

نعم تضرّك! . .

تجعلك تستعذب التسول. . . تجعلك تستسهل التشرد على مفارق الطرق. . . والمتسول المتشرد، يا صغيري العزيز، يخسر الكثير من عنفوانه، ويرمي بكرامته، مُهَانة على أرصفة الشوارع. . .

والإنسان، إذا فقد عنفوانه وكرامته، فقد إنسانيته. . . وصار أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، يُقرَع بالعصا، ويقيَّد بالزرد. . .

وأنا. . . أريدك يا صغيري، حتى ولو خسرت يديك، أن تظل إنساناً. . . إنساناً عادياً، يتمتع بكل حقوقه الإنسانية والمدنية.

أنت تضحك من كلمتي؟. لا بأس. . . إضحك ما طاب لك الضحك، فلن الومك، ولن أعتب. . . لأني أعرف أن عقلاً متوقداً بالذكاء، يكمن وراء ضحكتك. . . وضحكتك العاقلة تقول لي:

كيف اتمتع بحقوقي الإنسانية والمدنية، وأنا فقير؟. أنا غير قادر على تحصيل اللقمة بعمل شريف. . . لأن كل الأعمال الشريفة في بلاد المستكبرين، بلادنا، تتطلب يداً واحدة من عاملها على الأقل، إذا لم تتطلب يدين اثنتين. . .

أقبل ضحكتك. . . وأقبل آليّة عقلك الذكي. . . لكن لي موقفاً مغايراً إزاء ما قلت. . . واسمح لي هذه المرة، أن أرد على ضحكتك، بضحكة لوم

ورفض، لما قلته يا صغيري العزيز. . .

الأعمال الشريفة كثيرة ومتنوعة. . . وعدد منها غير قليل، يرتكز في انجازه، على الذهن. . . على العقل. . . على الذكاء، أكثر مما يرتكز على الحركة اليدوية، أو المهارة اليدوية.

لذلك إطمئن!. .

لكن الذهن والعقل والذكاء. . . وهي ثلاثة اسماء لمسمًّى واحد. . . يحتاج أولاً إلى المدرسة. وثانياً إلى نوع من التدريب والتأهيل، الذي يتلقاه عادة أمثالك من الأطفال، في البلاد المتقدمة إنسانياً واجتماعياً واقتصادياً.

لهذا السبب، أعدك يا صغيري العزيز. . . بأن أنادي، بإذن الله، بصوت يسمعه كل مُسْهِمٍ، في الخدمات الإنسانية والاجتماعية. . .

هذا الصوت يقول:

يا ملائكة الرحمة على هذه الأرض. . . أعرف طفلاً حلو الوجه، عذب الملامح، ابتسامته ساحرة، وذكاؤه متوقد. . . يقول لكم بكل الحزم والتصميم:

أريد أن أكون إنساناً عادياً. . . أحصل معيشتي بكرامة. وأخدم وطني، بدل أن أكون عبئاً على كاهله. فإذا استطعتم أن تساعدوني، على تحقيق هذه الأمنية، فابحثوا عني، عند إشارة السير الضوئية، وسوف تجدونني مستعداً، لبدء مسيرة الإنسان العصاميّ، الأبيّ، الكريم. . .

١٣ ـ تشويش سينمائي

ـ لو كانت أموالي المنقولة، وغير المنقولة (مبحبحة)، لحققت حلمي الجميل فوراً. . .

ـ وما هو هذا الحلم الجميل؟.

ـ انتقل من فوري إلى المطار، وأسافر في أول طيارة إلى بلدٍ من البلدان الراقية، أمكث فيه ثلاث ساعات ثم أعود. . .

ـ ثلاث ساعات فقط؟. وماذا عساك تفعل في الساعات الثلاث تلك؟.

ـ اشاهد خلالها فيلماً سينمائياً.

ـ أعوذ بالله من الشيطان!. . ماذا تقول يا رجل؟. تستنفر أموالك المنقولة وغير المنقولة، وتدفع تذكرة سفر جوي، إلى بلد راقٍ، فقط لتشاهد فيلماً سينمائياً؟.

ـ أجل.

ـ يا إلٰهي!. ولماذا لا تشاهد الفيلم السينمائي هنا في بلدك، وتريح أموالك الجامدة والمتحركة. . . وتستريح؟.

ـ لأن في بلدي لا وجود للسينما ولا للأفلام السينمائية. . .

ـ ارجوك، بدأت النكتة تصاب السماجة. . .

ـ ألا تدعني أكمل ما تسميه نكتة. . .

ـ وكيف لا أدعك، هيا أريد أن أفهم مغزى هلوستك؟.

ـ يا سيدي... في بيروت، وباقي المدن اللبنانية دور كثيرة للسينما، قد لا تجد بأناقتها وسعتها، في الكثير من الدول الراقية. والأفلام الناجحة، تفد إلى لبنان، تماماً كما تفد إلى هذه الدول.

ـ حسناً... فما الذي ينقصك أنت من هذا الموضوع.

ـ بيني وبينك... ينقصني الجمهور.

ـ هه؟. الجمهور؟.

ـ أو قل هؤلاء الخمسة بالمائة ـ حسب تقديري ـ من جمهور المشاهدين.

ـ ما بها هذه الخمسة بالمائة، حتى فعلت بك ما فعلت؟..

ـ هذه الخمسة بالمائة، لا تعرف كيف تشاهد العرض السنمائي.

ـ ماذا تقصد.

ـ أقصد أنها لا علم لها مسبقاً، بآداب مشاهدة الفيلم، في صالة عرض عامة...

ـ وهل صار لمشاهدة الفيلم آداب أيضاً؟.

ـ تماماً ككل ثقافة أو كل مهنة أو كل علم...

ـ أريد أن اصدقك لأعلم ما ترمي إليه... هيه وما دليلك على جهل هذا الجمهور بآداب مشاهدة السينما؟.

ـ أولاً الواحد من هذا الجمهور يعتبر السينما تلفزيوناً كبيراً، وصالة

العرض غرفة من غرف بيته، لا وجود فيها لأحد غيره، وبالتالي فهو حرّ في أن يتصرف كما يحلو له، دون مراعاة لمشاعر أو غايات الآخرين في مشاهدة الفيلم. . .

ـ أوه ما أشدّ برودتك، ظننت الأمر مهماً. . . يا سيدي لا تنس أن السينما مهرب جيد من الضجر في البيت، وتسلية ساعتين أو ثلاث لا أكثر ولا أقل. . . لا تعطِ هذا الموضوع اهتماماً أكبر من حجمه أرجوك. . .

ـ لا. أنا من يرجوك أن تهتم لهذا الأمر، فليس هو بالبساطة التي تظنها. أنا لا أشاهد فيلماً سينمائياً لأقتل ضجر فراغي، أو لأتسلّى ساعة أو ساعتين.

ـ حسناً قل لي. . . لماذا أنت تشاهد فيلماً سينمائياً؟.

ـ شكراً على طرح هذا السؤال الذي وضع حديثنا على سكة الصواب. . وإليك يا عزيزي الجواب.

●

ـ يا خمسة بالمائة!. . أنا أذهب إلى السينما لأجني الثمرات التالية!. . عدّوا معي. . .

أولاً: أقوم خلال ساعتين من الزمان، وأنا غارق في مقعدي الوثير، واضعاً رجلاً فوق رجل، أقوم برحلة سياحية، إلى بلاد لا أعرفها، قد تكلفني إذا زرتها، بالجسد، آلاف الدولارات، وعدة أسابيع من الزمن. . .

وهنا أُرخي لخيالكم العنان، كي يُحصي الفوائد والمُتعَ الثقافية والجمالية، التي يحصدها الرحّالة من هذه الرحلة. . .

ـ ثانياً.

ـ ثانياً، أنا اشاهد الفيلم السنمائي، لأقرأ رواية ممتعة، طويلة عريضة... في هذه الرواية أدرس لغة، وأدباً، وفناً، وعلم نفس، وتربية، وتاريخاً وجغرافيا ووو... إلخ...

ـ ثالثاً...

ـ ثالثاً... يا خمسة بالمائة!.. أنا اشاهد الفيلم السينمائي، لأدرس واستمتع بأرقى فن عرفه الإنسان حتى اليوم... وهو الفن السينمائي، وما يستتبعه من ابداع في الأفكار، ورسم للشخصيات، وابداع في السيناريو، وتماسك في الحوار الواقعي، بالإضافة إلى الماكياج، والتصوير، وهندسة الصوت والإخراج...

ـ ألا يكفي كل ذلك؟.

ـ والتطور التكنولوجي، وجميع المجهودات الجبارة، والمحشودة لانتاج هذا الفيلم... والتي من بديهيات الأخلاق السامية، أن احترمها بإصغائي لما تقول، وانتباهي لما تفعل... وهي قالت ما قالت، وفعلت ما فعلت، من أجل إرضائي، وإقناعي ونفعي، ليس إلا.

ـ رابعاً... أنا اشاهد الفيلم السينمائي، كي أعرف النقطة، أو المرحلة التي بلغتها المسيرة الحضارية للإنسان المعاصر... لأن الفيلم الحديث... هو المؤشر الصادق والدقيق، على واقع الحياة وأحوالها ومسيرتها الحضارية.

ـ ..خامساً:

ـ أرجوك دع خامساً... ما سمعته يكفي.

ـ استطيع أن أعدد لك مزايا الفيلم السينمائي في. . . خامساً وسادساً و. . . عاشراً بعد المائة إذا شئت. . .

ـ لا أنا لا أشاء. . . لكنني أشاء أن أسألك. . . ما الذي ينغص عليك قطاف كل هذه الثمرات، في صالات بيروت السينمائية. . .

ـ اسمع يا عزيزي. .

●

منذ أيام كنت اشاهد فيلماً استهواني، في أفضل صالات بيروت السينمائية. . . وبصراحة. . . حتى اخفف من إزعاج الخمسة بالمائة لي، قطعت تذكرة «فوتاي كلوب»[1] ثمنها خمس ليرات. . . يعني ثلث الراتب اليومي لموظف محترم.

ـ لا بأس. . . من يعتزل المزعجات لا بد أن يدفع الثمن. . . هيه. . . بدأ عرض الفيلم. . .

ـ بدأ عرض الفيلم حقاً. . . ولكن. . . ما أن بدأ حتى عرفت أن الفئوية، معدومة الوجود ـ والحمد لله ـ في صالة السينما. . .

ـ كيف؟.

ـ يعني إذا أجلستْك تذكرتك في مقعد الأوركسترا، أو البلكون، أو الفوتاي كلوب، أو البينوار[2] فالمسألة هي هي، وكل المقاعد وفئاتها نتيجتها واحدة: ازعاج في هذا أو هذه، وفي ذاك أو تلك. الخمسة بالمائة موجودة

---

(١) فوتاي كلوب مقعد خلفي تعزله عن باقي المقاعد حواجز ومساحات فارغة. . .
(٢) فئات من المقاعد تتدرج من الأدنى حتى الارفع.

أينما كان... وفي كل فئات المقاعد...

ـ لماذا؟. أليس هناك مراقب نظامي للصالة؟.

ـ وما جدوى مراقب النظام يا عزيزي في زمن اللانظام.

ـ فهمت... أكمل.

ـ بدأ الفيلم... والبداية مهمة جداً كما تعلم...

ـ طبعاً. فهي مفتاح أحداث الفيلم كله، أي مفتاح استيعاب كل احداثه.

ـ لكن كيس البوب كورن كان لي بالمرصاد.

ـ الكيس يخشخش فيشاغب على نصف الإنتباه.

ـ وتأتي «قرقشة» محتويات الكيس، فتأتي على النصف الآخر من الإنتباه.

ـ وضاع مفتاح أحداث الفيلم واستيعابها...

ـ بل تكسّر قطعة قطعة...

ـ ولكن... إلْحَقْ بنفسك يا فتى... الفيلم مستمر... ركز تفكيرك في الشاشة، فتستعيد حبل المتابعة والإستيعاب.

ـ وفعلتُ... لكن لغطاً بين رجل وامرأة، تصاعد خلف اذنيّ، وتزايد حتى صار نزاعاً وشجاراً.

●

ماذا حدث؟.

ـ مشاهد ومشاهدة، زوجان عريسان... تناقشا وتنازعا وتشاجرا، على نوعية أثاث عش الزوجية والسعادة... ثم انتقلا إلى التنازع على عدد الأولاد، المزمع انجابهم بالسلامة... الفيلم مستمر... ركزّ وتابع يا صبي، قلت في نفسي... وهنيهات من التركيز على الشاشة مرت... لكنها ماتت بسرعة. فإن علاّقة مفاتيح طنانة رنانة، حرّكتها بعصبية، أصابع مشاهد، على بعد مقعدين من مقعدي... وتدحرج انتباهي أو تركيزي، إلى طنطنة المفاتيح، وضاع بين ثناياها...

ـ مسكين أنت يا هذا...

ـ آه يا جاري السينمائي... ارجوك! عقلي خشخش، وطنطن، ورَنْرَن...

الموقف الذي بلغناه في أحداث الفيلم، دقيق وحاسم، ويحتاج مني إلى هدوء لكي استوعبه... هلاّ أوقفت خشخشة هذه المفاتيح، جزاك الله عنا خيراً...

ـ طلبك مرفوض يا عزيزي... فأنا بالخشخشة مبسوط...

ـ مبسوط؟.

ـ نعم... ألديك إعتراض؟.

ـ لا... لا سمح الله أن يكون لدي إعتراض... لكنني اغبطكِ، بل احسدك على هذه الأعصاب التي لا تسترخي، إلا بعذوبة خَشخشة المفاتيح...

●

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟.

ـ ماذا يمكن أن يحدث... رحت أغسل دماغي بنفسي... يا صبي!. هكذا خاطبت نفسي... اجعل تحكّمك بنفسك واعصابك قوياً... اعتبر أن خشخشة المفاتيح لا وجود لها، وأن الذي تسمعه أذناك وهمٌ بوهم... ركز انتباهك في الفيلم...

ـ عال... والفيلم ماشٍ...

ـ لكن حنجرتي لم تتحمّل طارئاً طرأ... وها هي حسَّاسِيَّتُها تثور فتبدأ بالسعال، وأنادي مستغيثاً أحد جيراني... يا أخ... الله يبقيك ويحميك! أطفيء هذه السيجارة، الجو حار والسينما مقفلة، والهواء محدود... والتدخين في السينما ممنوع... وزلعومي ثار وفار... ونادى بالعار والشنار!..

ـ هلا أقفلت فمك ياذا الزلعوم الثائر الفائر؟. هاجمني ادمان التدخين، ولا استطيع اطفاء السيجارة... فاهم أم غير فاهم؟.

ـ فاهم... فاهم والله... والله المستعان عليك وعلى أمثالك... عد إلى الفيلم يا صبي!.. هذه السيجارة ليست سيجارة... إنها رؤية هستيرية خرجت من دماغك... عد إلى الفيلم...

ـ وعدت يا عزيزي إلى الفيلم.

ـ عدت لحظات قليلة.

ـ وبعدها؟!..

●

ـ بعدها... بدأ إيقاع مسبحة جارٍ آخر... يشبه إيقاع نقطة ماء رتيب

على معدن. . . أعد في دائرة الشرطة، لانهيار أعصاب مجرم، حتى يقرّ بجريمته: . .

ـ أعوذ بالله. . . تشبيه رائع. . .

ـ واختزلت ايقاع حبات المسبحة من ذهني، وتابعت الفيلم بعزيمة جبارة، لاتحوّلها عن مسارها، اوركسترا النشازات العازفة حولي. . .

ـ وانتصرت العزيمة الجبارة المرة؟.

ـ لا يا عزيزي. . .

ـ من هزمها؟.

ـ هزمها رَفْس مؤخرة مقعدي، بقدم طفل، رافق أمه إلى السينما فأضجره الفيلم، فراح يسرّي عن نفسه الضجرة، بالدقّ والرفس. . .

ـ اطلب من أمه تأديبه أو ابعاده.

ـ طلبت. . .

ـ وماذا كان الجواب.

ـ شتيمة، صفعت وجه من يتدخل في الشؤون العائلية للآخرين.

●

ـ الفيلم مستمر وأحداثه بدأت بالتصعيد والتأزم.

ـ أصبت، وأصبح الأمر يحتاج إلى تركيز أشد. . .

ـ وركزت بشدة.

ـ لكن الشدة ارتخت، حين قبّل البطل البطلة في الفيلم، فانهالت

الأصوات عليهما، من عتمة الصالة، تحمل تعليقات بذيئة على المشهد، تخجل منها الفضيلة... وصرخت، متشجعاً بالعتمة التي تسترني، صرخت بالمعلقين، يا شباب، في الصالة أناس لا يحبون سماع هذه التعليقات.

ـ هل جاوبوك؟.

ـ جاء الجواب حاسماً... اخرس يا هذا... وإذا كنت لا تحب هذه التعليقات، باب الصالة مفتوح، والشارع واسع..

ـ وخرجت؟.

ـ والله قمت لأخرج، مضحياً بالليرات الخمس العزيزة الغالية، لكنني لم استطع الخروج؟.

●

ـ لماذا؟.

ـ لأن شرذمة من الفتيان... وصلت إلى الصالة متأخرة، وراحت تبحث عن مقاعدها في العتمة، وشاء الحظ السعيد، أن أقدامهم قادتهم إلى مقعدي، فغرقت بنزاعهم ونقاشهم وضحكاتهم السمجة، وهم يدوسون بأقدامهم الخشنة، أقداماً ناعمة كأقدام السيدات وقدميّ...

ـ ولكن ما أتوا يفعلون والفيلم اشرف على النهاية؟.

ـ لا أدري.

ـ كان عليك أن تزجرهم...

ـ لقد فعلت... ومَنْ قال لك أنني لم أفعل.

ـ فعلت؟.

ـ نعم فعلت.

ـ ماذا فعلت؟.

ـ استترت بالعتمة كما تقدم، وقلت لهم: لماذا لا تحترمون مواعيدكم، وتدخلون السينما في الوقت المحدد، فلا تزعجون الناس هكذا!..

ـ وخجلوا من زجرك لهم وهدأوا.

ـ أعوذ بالله...

ـ ماذا حدث...

ـ صدر عن أحدهم صراخاً يقول: يا أصحاب السينما! اضيئوا لي المصابيح قليلاً، حتى أعرف من هو هذا الناعم الديليكا[1]، فأقدم له هدايا شهية من يد أبي الهباهب.

ـ أبي الهباهب؟. أبي الهباهب إياه؟.

ـ سمعت هذا الكلام فاقشعر بدني وارتعدت فرائصي... لملمت حالي، وانسللت خلسة تحت جنح الظلام، إلى الشارع، حزيناً متشائماً و... خائفاً...

ـ ممّ؟. من أن يلحق بك أبو الهباهب.

ـ لا يا عزيزي لا... لقد خفت وحزنت... على حرماني وحرمان أمثالي، من الإستفادة والإستمتاع بخدمات السينما... خدمات.هذه

(١) بالفرنجية معناها الناعم الرقيق.

المؤسسة التثقيفية الفنية الحديثة... خدمات الفن السابع، كما اسموها تكريماً وتعظيماً...

●

حزنت وتشاءمت وخفت... من أن تزيد نسبة الخمسة بالمائة، يوماً بعد يوم، فتمنع شعبي من ارتياد السينما، بروح التقدير للفن المعروض أمامه على الشاشة، وبروح الإحترام لجمهور الجالسين حواليه... لهذه الشريحة الرامزة إلى مجتمعنا المعروف من قديم الزمان... بالوعي، والرقي، واللياقة الأخلاقية والإجتماعية...

١٤ـ سطل سمنة

ـ صباح الخير يا أبا زكّور.

ـ أهلاً أهلاً سيدة فريال... مائة أهلاً وسهلاً... أين أنت يا صبي؟. يا زكور... هات كرسياً للسيدة فريال... اسرع... سيدة فريال تفضلي ارتاحي... قهوة أم عصير؟.

ـ العفو العفو يا أبا زكور... أنا عند أبي زكور السمّان، لا عند أبي زكور القهوجي...

ـ باطل باطل سيدة فريال، ألا تعلمين أنه من أجل كرامة السيدة فريال، دكان السمانة يصبح مقهى، وأبو زكور فيه خادم أمين؟.

ـ سلمت يا أبا زكور. يا ابن الأصل..، أي... أريد خمسة كيلو من الأرز...

ـ على رأسي قبل عيني... ولكن ليس قبل أن نتفق... قهوة أم عصيراً؟.

ـ طيب... مادمت مصراً... فليكن عصيراً...

ـ كباية عصير، كالبرق، يا زكور...

ـ ما سعر الأرز هذه الأيام يا أبا زكور؟.

ـ يا سيدتي ليكن سعره ما يكون... لا السيدة فريال سوف تستغني عن

الأرز في البيت. . . ولا أبو زكور سوف يعمّر، من ثمن الأرز، عمارة. . . قرشين ثلاثة ربحاً حلالاً في الكيلو، تساوي مائة ليرة بالجشع والحرام. . . المهم السُترة وراحة الضمير. . . مال الدنيا في الدنيا يا سيدة فريال. . . وهنيئاً لمن يترك وراءه ذكراً طيباً. . . كيلو الأرز، الله وكيلك، (يقف علينا) بنصف ليرة، نقله إلى المحل قرشان، وكلفة كهرباء وإيجار محل وخدمة ثلاثة قروش، وأخيراً خمسة قروش ربح لعمك أبي زكور، فيصبح سعر بيع الكيلو ستين قرشاً. وإذا وجدت السيدة فريال السعر مرتفعاً، بالنسبة إلى الرأسمال، فلتدفع ما تريد. . .

ـ بالعكس يا أبا زكور. . . ربحك معقول، والله يبارك لك فيه، تكفيني إنسانيتك وأخلاقك. . .

ـ العفو يا سيدة فريال. . . نحن جيران وأهل. . .

ـ والآن. هل تسمح لي. . . زكور وزن الأرز، وعليّ أن أنصرف، ممنونة جداً للعصير. . .

ـ العفو يا عيب الشوم. . . الف صحة. . .

ـ حمّلني كيس الأرز يا زكور. . .

ـ باطل سيدة فريال. . . أنت تحملين كيس الأرز ونحن هنا؟. زكور. . . أحمل الكيس، وأوصله مثل الغزال، إلى بيت السيدة فريال. . . (هامساً) اسمع، إياك أن تقبل منها إكرامية على هذا العمل، سأشمط أذنيك لو فعلت. . . اسمعت؟. (معلناً) رُحْ والله معك يا زكور. . . شرفتنا يا سيدة فريال.

●

ـ (متأوهة) آخ . . . آخ . . . هذا الحوار كان قبل سنة خمس وسبعين وتسعمائة وألف . . . قبل السنة الأولى للحرب وفوضاها، وتدميرها البنيان والإنسان. لكن حواراً آخر، ومن نوع آخر، جرى في نفس المحل والدكان، منذ أيام، نعم . . . حوار طازج . . . لكن . . . ليس بطله أبو زكور ذاته . . . هذه المرة بطل الحوار أبو السباع . . . أبو سباع الحرب . . . أو بالأحرى . . . أبو الضباع . . .

نعم . . . نفس أبي زكور الطيبة . . . حين رأت التجارة، بعد الخامسة والسبعين، أصبحت حرة . . . حرة أكثر من اللازم . . . هجرت التجارة . . . وحلت محلها في الدكان نفسه، نفس غير طيبة. نفس أبي السباع . . . نفس التاجر، موديل ما بعد الخامسة والسبعين. والآن . . . آكشن . . . إلى محل أبي السباع والحوار الجديد . . .

●

ـ (زاجراً) رزّوق . . . انقَبر تعال هنا . . . من قال لك، قل للزبون الذي كان هنا، إن السمن موجود عندنا؟ . هل وظّفتك هنا خادم الدكان أو وكيل أعمال؟ . (يصفعه) خذ هذه الصفعة فلعلّها تربّيك . . . ألا تعرف انك أذا قلت له أن السمن متوفر، لا يدفع السعر الذي نريده أيها البهيم؟ .

وتدخل السيدة فريال احدى بطلات المشهد الماضي .

ـ الله معك يا أبا السباع . . . معذرة، أنا تعبة، مشيت كثيراً . . . فهل لي بكرسي ارتاح قليلاً . . .

ـ أترينا فاتحين مقهىً هنا يا سيدة للجلوس والراحة؟ . ألا ترين الناس هنا بعضها فوق بعض؟ . اشكري ربك الذي جعلك تجدين مكاناً تقفين فيه .

ـ حسناً يا أبا السباع... لا تؤاخذني إن أغضبتك... اعطني سطل سمنة... من النوع الذي آخذه دائماً...

يقهقه أبو السباع استهزاء بطلبها، ومع القهقهة الغوريلائية يقول:

ـ ودعي هذه السمنة يا سيدة ... هذه السمنة ذهبت إلى غير رجعة.

ـ ماذا؟.

ـ السمنة هذه مقطوعة في البلد... ألا تعلمين؟.

ـ مقطوعة؟. ولماذا هي مقطوعة؟. أليس هناك استيراد؟. في الزمن الطيب الغابر... كان هناك مرفأ واحد وكنا عائشين، معه، بألف خير... الآن صار عندنا خمسون مرفأ على الأقل، ولسنا قادرين، معها أن نشبع؟.

ـ (بفظاظة) اسمعي ايتها السيدة؟. إذا كنت اتيت لتشتري أهلاً وسهلاً، أما إذا اتيت لتناقشيني الحساب، فدعينا في شغلنا.

ـ تطردني يا أبا السباع؟.

ـ قلت لك السمنة مقطوعة، يعني مقطوعة.

ـ أبا السباع... زوجي مريض... والطبيب نصحه بالحِمْية... من غير هذا النوع من السمن لا يستطيع اتباع الحمية... أرجوك... دبّر الأمر وأمِّنْ لي سطلاً واحداً فقط...

ـ يا نهار الزفت... لم تعد الناس تفهم الكلام.. لا سمنة عندنا أقول... ألا تفهمين؟.

تنهّدتُ تنهيدة طويلة... أنا الزّبونه الآتية إلى هذا الدكان، لتربّح صاحبه، فواجب صاحبه مقابل ذلك أن يلبي حاجتي. لكن النتيجة الآن أنه

طردني ووصفني بعدم الفهم... خرجت من الدكان والدمعة في عينيّ... لكن مفاجأة بعد قليل، حدثت...

●

ما أن بلغت الرصيف الآخر، حتى سمعت الصبي رزّوق خادم أبي السباع، يناديني، واقف لأسمعه يقول لي:

ـ يا سيدة فريال... عزّ عليّ أن تخرجي من المحل مطرودة وخالية اليدين... فرجوت أبا السباع وتوسلت إليه، لكي يبحث في زوايا المحل، عما تطلبين... وبالفعل... استجاب لتوسلاتي وفتش وبحث كثيراً... والحمد لله... تيسّر الأمر... ووجد سطل سمنة منسيّاً من قديم... أو ربما خبّأه ليوم حاجته...

ـ (فرحة) إذن سطل السمنة متوفر...

ـ نعم... لكن...

ـ لكن ماذا؟.

ـ لكن بسعر غير الذي كنت تدفعينه.

ـ كنت أدفع ثمنه منذ أيام ثلاثين ليرة... فما سعره الآن.

ـ يا سيدة فريال... سعره الآن ستون ليرة...

ـ أعوذ بالله... خلال أيام يتضاعف السعر يا رزوق.

ـ اضحكي في عبّك يا سيدة فريال... حظك عظيم حين وجد لك هذا السطل المنسيّ، الباقي وحيداً في زاوية المستودع.

ـ يا رزوق... في زوايا مستودع أبي السباع، الف سطل مثل هذا

السطل. لكن أبا السباع، لكي يبيع السطل مضاعف السعر، يؤدي هذه التمثيلية، بالاشتراك مع رزوق، وتربحون بالسطل ثلاثين ليرة، بالإضافة إلى الأرباح الأصلية الفاحشة، ولتعش رَغَداً يا أبا السباع... أما أنت يا شعب... فمت محروماً...

●

ـ وصلت إلى البيت القيت بنفسي على مقعد في مدخله... واطرقت مفكرة... هؤلاء الناس المتزاحمون على دكان أبي السباع، هم أيضاً، مع أبي السباع، أصل البلاء ودعامته... وهم الذين جعلوه يتفرعن ويتغطرس.

يا خائفين الجوع!.. اطمئنوا لا أحد يموت جائعاً...

يا هواة الأكل حتى درجة التخمة!.. خففوا الأكل... التخمة مرض وموت.. واقلال الأكل صحة وحياة...

يا هواة التخزين في البيوت! لا تخزّنوا... لبنان ما انقطع عن العالم الخارجي بعد... ولن ينقطع...

يا خائفين الجوع! ويا هواة الأكل والتخزين!.. إذا عملتم بنصيحتي، تأكدوا أن أبا السباع لا يبيع، في اليوم، إلا سطل سمنة واحد...

ولن يمضي عليه يومان، على هذا الحال، إلا وألوف سطول السمنة، سوف تظهر من عتمة المستودع، إلى ضياء الرصيف والواجهة، وسوف تباع، عندها، بسعر معقول، وربحٍ حلال...

●

بعد هذه الأطراقة الطويلة، عند مدخل بيتنا... طلع من أعماق نفسي سؤال...

قبل سنة خمس وسبعين المشؤومة، وما بعدها... ظل هذا الدكان دكان سمانة... وأنا ظللت زبونته، اشتري منه حاجياتي، وادفع الثمن المطلوب...

لكن... لماذا كنت أخرج في الماضي، من هذا الدكان سعيدة راضية... والآن... أخرج منه تعيسة غاضبة؟.

ما الذي تغيّر منذ تلك الأيام وحتى هذه؟.

وبسرعة وردني، من أعماق النفس، جواب السؤال يقول:

الذي تغير... هو صاحب الدكان...

والتي تغيّرت... هي الأخلاق!..

١٥ ـ بنزين

سامي. . . سامي. . . أفِقْ. . . أفِقْ. . . أنا زوجتك بلقيس! أفِقْ أرجوك. . . سأحكي لك تفاصيل منام رأيته لتوي. . . لا تسخر مني يا رجل. . . المنام جميل جميل جداً. . .

اسمع يا سيدي. . . لقد رأيت، فيما يرى النائم، نفسي، اسبح في بحيرة من الـ . . . من البنزين. . . نعم نعم بحيرة من البنزين. . .

بعد قليل لم أكتفِ بالسباحة، بل صرت اسبح و. . . أشرب. . .

نعم نعم. . . اسبح في البنزين وأشرب البنزين. . .

آه. . . تسألني عن الطعم؟. يا للحلاوة!. . بنزين كالليموناضة تماماً. . .

انتظر لأكمل لك سرد المنام. . . حسناً. . .

أي. . . بعد ذلك. . . من فرط ما شربت من البنزين. . . تحولت. . . سامي لا تسخر مني هه. . . تحولت إلى. . . سيارة. . . سيارة تقريباً. . . أجل. . . سيارة عجيبة غريبة، يعني يعني كما تقول: سيارة هي مزيج من سيارة وزورق وطيارة. . . برية بحرية جوية. . . هيه؟!. . مالك لا تضحك يا بارد؟. منامي هو البارد؟. وهو يُبْكي ولا يُضحك؟. لماذا؟. هه؟!. لا تفزعني ارجوك. . . البنزين في المنام، تفسيره نار. . . والنار حرّاقة؟.

أعوذ بالله من أفكارك الشيطانية يا رجل. . . البنزين خير. . . البنزين

ابرات... ودولارات... طوبى لمن له محطة بنزين في هذه الفانية...
أغرب عن وجهي يا رجل، أثرت سأمي... هيا معي إلى السوق نتبضع...
هيا... أنا أسوق السيارة... وسيادتك تتسوّق ما نحتاجه...

●

يا ويل بلقيس!. أيعقل أن يُفَسَّرَ منامي هذا التفسير؟. في المنام اسبح في بحيرة بنزين، وفي اليقظة، تشتهي سيارتنا البنزين... حتى رائحة البنزين ولّت عن خزان الوقود وارتحلت... هيا يا سامي... أرني قوة عضلاتك في دفع السيارة... إلى محطة العنكبوتي...

●

عبئها «فول» يا عنكبوتي... لالا ما قصدت الفول الذي يؤكل يا صاحبي... إنما فول بالإنكليزي... يعني عبئها حتى الشفة... نعم شفة فتحة خزان الوقود... ما بك تتضاحك وتلوّي برأسك يا عنكبوتي؟. نعم؟. لن تعبئها لا فول ولا حمص؟. حسناً عبئها بالبنزين... ماذا؟. نكتة بائخة؟. حسناً هات أنت نكتتك (الخلنج)؟. نكتتك أن لا نقطة بنزين في المحطة؟. هذه نكتة؟. هذه نُدْبة، تبكي حجر الصوّان!!.

يا لحظك التعيس ... يا بلقيس!. محطة بنزين... بلا بنزين؟. رُحْماك يا عنكبوتي... سيارتي فارغة لا أفرغ الله لك بطناً... وكلنا في المنزل صرنا كالآلة المعطلة...

على زوجي الآن أن يتوجه إلى وظيفته... والأولاد إلى المدرسة، وأنا... رويدك يا رجل... لا تَزْجُرْني هكذا! حتى لا أغضب، فينالك الأذى من غضبي... فهمنا فهمنا... لا بنزين عندك... سننصرف، لكن إيّاك أن تزجر أو ترفع صوتك، في وجه المحترمين...

(هامسة) ما بك يا سامي؟. هه؟. أضع في جيب العنكبوتي رشوة، فيتفجّر عندها نبع البنزين؟.

هاه... نبع البنزين لا يتفجر إلا على رنين الذهب والفضة؟. حسناً، هذه هي القصة إذن... بسيطة...

●

(بمنتهى الرقة) عنكبوتي؟!. يا أحلى عناكب هذا البلد... هلا فتحت لي جيبك قليلاً؟. أريد أن أضع فيه مفاجأة صاعقة.. غراند سوربريز.. بأية مناسبة؟. ليس هناك أية مناسبة، إنما سمعت أن عندك محروساً، عنكبوتاً صغيراً يحب الشوكولا والكراميل... فأردت أن تكون حشوة بطنه العزيز الغالي غداً، من هذين الصنفين الشهيين، على حسابي، ونفقتي الخاصة، وذلك في صورة ورقة الخمس ليرات، نقداً وعدّاً... تفضل...

لالا... لا تشكرني.. هذا واجبي الذي اهملته سابقاً فلم اذكرْه... اعذرني على ذاكرتي الضعيفة أيها الصديق.

ولكن قل لي يا عنكبوتي، إذا وجد امرؤ سيارته عند الصباح فارغة، حتى من نقطة البنزين الواحدة، وأتى بها لَكْماً بالأيدي وركلاً بالأرجل، إلى محطة العنكبوتي... فهل يُعقل أن يرضى العنكبوتي، بأن نردها إلى المنزل، لَكْماً بالأيدي، وركلاً بالأرجل؟.

ماذا تقول؟.. معاذ الله أن ترضى بذلك؟. وإذا نضب البنزين تزودها وقوداً من دموع العين؟. سلمت عينك بل عيناك يا عنكبوتي...

لكنني، لكنني عدم المؤاخذة، أفضل أن نزودها بالبنزين، لأن دموع العين أحياناً تسدّ (المُكَرْبِر) كالبنزين المغشوش تماماً، خاصة إذا كانت هذه

الدموع، دموع تماسيح. هيه ما عندك من بنزين الآن؟.

مدهش مدهش!.. صفيحتان فقط لا ثالث لهما، في كل خزانات المحطة؟. يا سبحان الله!. كيف وصلنا في الوقت المناسب!!..

سامي تصور أن في المحطة صفيحتَيْ بنزين فقط. لكنهما تكفيان لملء خزان سيارتنا حتى الشفة أليس كذلك يا عنكبوتي؟. احسنت.

أرأيت يا سامي، كم حظنا يفلق الصخر؟. سعة خزاننا صفيحتان... وفي المحطة صفيحتان... والعنكبوتي حرَّمهما على كل سائق سيارة، لتكونا لنا حلالاً زلالاً... هكذا هكذا، حباً بنا، وقربة لوجه الله تعالى...

هيه... هيا يا عنكبوتي افتح خرطوم بنزينك، عفواً... خرطوم الرحيق المختوم...

●

سلمت يداك يا عنكبوتي... هيه... كم الحساب؟. اوه!. خمسون ليرة؟. الصفيحة بخمس وعشرين يا عنكبوتي؟. والـ «كذا مذا» الذي دفعناه مسبقاً، ألا يخفّض الحساب؟. هاه... الصفيحة بخمس وعشرين للذي يدفع الـ «كذا مذا»؟..

يا سلام!. عاشت القناعة وعاش الزهد!.. لكنني أعلم أن المحطات الزاهدة بأموال الدنيا وكنوزها، تبيع صفيحة البنزين بثماني عشرة ليرة أو عشرين، أي بزيادة ثلاث أو أربع ليرات عن التسعيرة الرسمية، والقناعة كنز لا يفنى... فلماذا حضرتكم قفزتم إلى الخمس والعشرين؟.

هاه... الحق معكم... قيل لفرعون:

«لماذا تفرعنت»؟.

قال: «تفرعنت وما ردّني عن الفرعنة أحد».

●

الخمسون دُفعت بالتمام والكمال... ومحتاج الجمر، يحتضته براحتَيْه.

يا طيب الذكر... يا عنكبوتي!. عجلات السيارة بعضها طالع، وبعضها نازل... هل تسمح بتعييرها؟.

ماذا؟. مولّد الهواء معطّل؟. أصلحه الله وأصلحك.

يا عنكبوتي!... رجاء أن تمسح زجاج السيارة... هكذا من قريبه...

هه؟. كان لديك جلد للمسح، لكنه اختفى ولا تعلم أين ذهب؟. لعله ذهب مع الريح...

لا تضحك يا عنكبوتي... ضحكتك صارت سمجة...

يا عنكبوتي!.

أنعم الله عليك يا مهذب يا مربّى... الراديا‌تور نشّف. هلا صببت فيه بعض الماء؟. اوه... الماء مقطوعة أيضاً... قطع الله رأس البخيل حتى بالماء...

يا عنكبوتي... لا ماء عندك ولا هواء... وصفيحة البنزين بخمس وعشرين؟.

وداعاً يا عنكبوتي... لكن قبل أن أنصرف أريد أن أسألكَ: الماء والهواء قطعتَهما لماذا؟. لتبيعهما، فيما بعد، للزبائن بيعا؟.

لا تقل لا. . . اعترف وقل نعم. . . وداعاً الآن. . .

●

ماذا يا معلم برهوم؟. طمئنّي، لماذا توقفت السيارة؟. الكاربيراتور مسدود؟. أعوذ بالله!. وما الذي سدَّ الكاربيراتور؟. وسخ البنزين؟.

تعني أن بنزين العنكبوتي مخلوط؟. بماذا هو مخلوط؟ بفستق وقُضَامة؟. هاه. . . بماء ومازوت؟.

ماء ومازوت وبخمس وعشرين ليرة للصفيحة؟. يا لمصيبتك يا بلقيس!. لمن أحكي ولمن اشكو. . . لمن؟.

لا لأحد اشكو إلا لك يا ربي!.

إن كان الخبز قوت الإنسان. . . فالبنزين وتوابعه قوت حياة الإنسان. . . فيا ربي لا تحكِّم هذه الذئاب الكاسرة بحياة عبادك، ولا تُسلِّم مضخة بنزين، إلا لمن لا تفرغ مضخة ضميره من الرحمة والإنسانية، حتى تستمر في ضخِّها وقوداً للناس اسمه: الأخلاق. . . اسمه الذوق. . . اسمه الحياء. . .

١٦ ـ زمامير

(متوجعة) آخ يا دكتور آخ... نعم نعم هنا أيضاً احس بالوجع...

كتفاي ورقبتي متشنّجة... واشعر بما يشبه التكميش في رأسي، كأن أحدهم يشدّ شعري شداً قوياً.

وأصابع يدي ورجلي مكرتعة. وركبتاي معصّبتان... و... ماذا أعدّ وأعدّ لك يا دكتور؟.

بكلمة واحدة... كل أعضاء جسمي مكرتعة مكركَعَة... كالسيارة العتيقة المُخَلْوَعَة... (تئن) هيه يا دكتور... بعد أن عرفت الحوايا... قل لي ما الحكاية؟.

(فرحة) ماذا؟ عرفت الداء؟. إذن سهل الدواء.

(ثم بقلق) ماذا تقول يا زَيْن العقول؟.

عرفت الداء وما عرفت الدواء؟.

واحسرتاه على شبابك يا فريال!..

علتك ليس لها دواء؟. لماذا يا دكتور مرضي ليس له علاج؟. يا إلهي؟. هو مرض جديد؟. مرض... مودرن... عصري؟. مرض على الموضة؟. ما اسمه يا دكتور قل لي بربك... ما اسمه؟.

(متلعثمة) زم زم زَمُّورِيشم؟.

وافريالاه!. وامصيبتاه!. زموريسم؟. هكذا دفعة واحدة؟. أتكونين يا فريال الضحية الأولى للـ. . . للزموريسم؟.

(مستدركة) ولكن. . . قل لي يا دكتور ما هو هذا الزموريسم؟. أقصد أقصد هل هو مرض قاتل؟.

(مطمئنة) الحمد لله. . . عال عال. . . الزموريسم لا يقتل ضحيته بسرعة. . . يمهلها عادة عدة سنوات. . . حسناً ضَمِنّا عدة سنوات حياة. . . شكراً لك يا إلهي!.

قل لي يا دكتور. . . من الآن وحتى يتمكن الزموريسم من القضاء على. . . على. . . (مولولة) أعوذ بالله. . . بعيد الشر عني وعن قلبي. . .

دكتور. . . قل لي. . . كم سنة بقي لي من الحياة؟. اخبرني. . . قل لي الحقيقة.

ماذ؟. حسب زمامير السيارات التي اسمعها؟. (مستغربة) يا دكتور. . . أرى أنك أنت أيضاً تحتاج إلى دكتور. . . ما علاقة الزموريسم بزمامير السيارات؟.

(دهشة) هه؟. مرض الزموريسم ناتج عن كثرة زمامير السيارات!. هاه. . . الآن فهمت الحكاية. . .

نعم؟. حاضر يا دكتور حاضر. . . سوف أحكي لك كل شيء، فلعل هذا يساعدك، على اكتشاف دواء، ينقذني من هذا الزموريسم. . . (مستدركة) لعنة الله على هذا الداء واسمه. . . اتعلم؟. لا يعجبني اسمه. . . ليس موسيقياً. . . إنه يشبه. . . يشبه صوت الزمور البحري المبحوح. . .

●

سيدي الدكتور... زيزو زوجي يؤكد لي، أنه يسمعني ازمّر، وأنا نائمة طيلة الليل... أقصد أنني أقلد زمامير السيارات وأنا نائمة... حتى شخيري... نعم شخيري... صار زماميريّاً...

(باكية) يا سيدي الطبيب... مصيبتنا أن بيتنا، الذي استأجرناه من زمان بين البساتين الحالمة، صار اليوم يطل على شارع متحضر جداً، إلى درجة أن عينيه، تظلان (مُفَنْجرتين) طيلة الليل، وطبعاً طيلة النهار... شارع لا يهدأ نهاراً ولا ينام ليلاً...

أول دلالة على حضارته وعلى سهره الدائم على راحتنا... زمامير سياراته... سياراته التي لا تتوقف ولا تنقطع لحظة...

ولكي نأخذ فكرة واضحة عن السير في شارعنا، أقول إنه شارع ضيق أو أقول إنه زاروب واسع... هُنْدِس في الأساس ليستوعب، بالكاد، خط سير موحّد الإتجاه... الآن تجد على جانبيه صفين من السيارات المتوقفة، وصفين من السيارات المتحركة، فتأمل هذه الحزّورة يا دكتور...

ألا تصاب بالهستيريا حين تبحث لها عن حل؟.

(متضاحكة ببلاهة) اتعلم يا دكتور... ألا تكون سيارات شارعنا، كعجلاتها، مصنوعة من مطاط؟. تتقلص حين تعبر شارعنا، وتنتفخ حين تخرج منه... (تقهقه) نكتة بديعة أليس كذلك يا دكتور؟.

(باستنكار) ماذا؟. نكتة... لكنها تُبْكي ولا تضحك؟. صدقت يا دكتور صدقت.. (تبكي) بدأت اهلوس يا دكتور... طبعاً... الزموريسم بدأ عمله في دماغي...

●

يا دكتور... شارعنا أكبر منتج للزمامير في العالم... وزمامير شارعنا تستعمل في عدة أغراض وأهداف... بعضها للتحذير، وبعضها للتنمير... نوع منها للتفاهم... ونوع منها للإنذار المبكر... زمامير تستخدم للغزل، وزمامير للزجل، وزمامير للقدح والذم، وزمامير للتمدُّد والزمّ... زمامير يجري بها حوار بنّاء... وأخرى تكون لحوار هدّام...

اسمع يا دكتور... زمور البيانو المبرمج... ينادي به، ميمو ابن جيراننا، حبيبته «تشاتشاتشا» لكي تطل على الشرفة ليراها...

زمور فورد أبو دعسة، يدعو به أبو شَهْبَاز، رفيق عمره، أبا بشّور، إلى «ترويقة كنافة بجبن» واركيلة، في مقهى البحر...

وزمور الإسعاف الرسمي، الذي تأممّ هذه الأيام وتَعَمَّم، يستعلمه جارنا أبو الهباهب، ليفتح به السير، إذا تعرقل في وجهه.

والزمور الجِعَاريّ... (مستدركة) نعم هناك زمور جِعاريّ، ألم تسمع به دكتور؟. سَمَّوْه جعاريّاً، لأنه مقتبس من انغام نباح الكلب الجعاريِّ المعروف.

نعم... الزمور الجعاري يستعمل احتجاجاً على شرطي السير، الذي فتح السير للآخرين، ولم يفتحه لصاحب الزمور...

●

وهكذا يا دكتور... هناك زمامير للتعبير عن الفرح، وزمامير للتعبير عن الحزن... وأخرى للغضب وللعدوانية... والنكتة يا دكتور، أن هذه الزمامير لا تكون عادة بحجم السيارات التي تحملها.

صباح أمس... كنت بين النائمة والواعية، سمعت زموراً بجرياً

قريباً.. قفزت من الفراش كالمجنونة ورحت أصرخ...

ـ زيزو... زيزو... الباخرة سوف تقلع، لقد تأخرنا... اسرع لنلحق بها اسرع...

زيزو صار يضحك... وافقت أنا من حلمي، فرأيتني انظر إلى الشارع عبر النافذة... واكتشفت أن الباخرة التي تزلزل الحيّ بزمورها، لم تكن سوى سيارة، كانت اساساً صفيحة كاز فاضية، فركبّوا لها محركاً واربعة دواليب...

●

لا تؤاخذني يا دكتور إذا هلْوست كثيراً... قل لي الآن... ما الدواء لدائي؟. انقل فوراً من بيتي إلى بيت هاديء، حيطانه طراز «آنتي ـ زمور»، حيطان ضد الزمامير؟. (صوري) دكتور... هذا الدواء نفد من الصيدليات... بيتي إيجاره الفا ليرة... إيجار البيت الجديد «انتي ـ زمور» عشرون الفاً... أنا أدفع عشرة اضعاف إيجار بيتي؟. الله هو الكافي والشافي... من الزموريسم والأمبيرياليسم...

هات دواء غيره يا دكتور... لا دواء غيره؟. حسناً... وداعاً يا دكتور... إلى أين؟. ذاهبة لاقف في نافذة بيتنا، المطلة على شارع الحضارة، واصرخ على مدى صوتي:

●

يا أصحاب الزمامير اللعينة!. يا ملّوثي بيئة حيّنا بضجيجكم وعجيجكم!..

يا أكبر برهان على تخلفنا، عن أبسط قواعد الحضارة!..

يا متلذذين بتمزيق أعصاب الناس واحراقها! . .

اسمعوا مني هاتين الكلمتين الصغيرتين:

سنة من سنوات قليلة ماضية، كنت اسوق سيارتي ببلد راقٍ. وعلى أحد مفترقات أحدى مدنه، وبحكم العادة السيئة التي نشأنا عليها هنا، امتدت يدي وأطلقت زموراً قصيراً. . . اتعلمون ماذا حدث؟.

يا لطيف الطف! . تمنيت أن تنشق الأرض لتبتلعني تلك اللحظة، لأن نظرات الساقة على المفرق، ونظرات المارة على الأرصفة، راحت تلتهمني. . . تمزقني. . . بسبب العمل الوحشي الذي ارتكبته. . .

يا أصحاب الزمامير اللعينة. . . إذا كنتم لا تريدون تقليد العالم الراقي، ولا تريدون أن تتعلموا آداب الشارع، وآداب السياقة والسير. . . فعلى الأقل ارحمونا. . . ارحموا الأعصاب، الطالعة توّاً من آتون خمس سنوات، مصائب وكوارث[1].

---

(١) كتبت هذه الحلقة عام ١٩٨٠ والحرب اللبنانية ماتزال في ثلث عمرها الأول.

١٧ ـ رشاش

ـ (بدلال وانوثة) زيزو. . . زيزو. . . يوم الخمِيس القادم، بماذا يذكرك؟. (دهشة) لا يذكرك بشيء؟. اعوذ بالله ابتعد عني يا ناكر الجميل، يا خائن عهد حبي ووِدادي. . .م م. . . لا يذكرك بشيء يوم الخميس، هه؟.

يوم الخميس، (ياناسيني وأنت على بالي)، ذكرى عيد ميلاد من؟. لا تعرف من أيضاً؟. هو عيد ميلاد عبدتك المطيعة، وخادمتك البديعة التي هي. . . أنا. . .

الحمد الله على أنك تذكّرت. . . (مهاجمة) اسمع. لا تحتجّ بالاشغال، ولا تتذرع بالأعمال. . . مَنْ يحب لا ينسى حبيبته يا. . . يا مَنْ ليس حبيبي!. .

سأكون أكثر وفاء.

حسناً لا تعتذر، ، ، سأكون اوفى منك. . . سأسامحك. . . نعم سوف اسامحك ولكن. . . على شرط. . .

نعم. . . اسامحك على شرط أن تكبّر هدية عيد الميلاد. . .

لالا يا عزيزي. . . تكبرّها بالقيمة والنوعية لا بالحجم والكمية. . .

طبعاً يجب أن تكون هدية مميزة، استثنائية. . . إذا رآها عاقل اصيب بالخبل. . . وإن راتها ذاتُ الحِجَى اصيبت بالهبل. . . لماذا؟. اسمع لَماذا. . .

●

أولاً ـ عليك أن تدفع، غالياً، جزاء نسيانك يوماً من ايامنا التاريخية.

ثانيا ـ عليك أيضاً أن تدفع غالياً، ثمن الهدية، التي تقدم في ذكرى ميلاد بطلة حبك الأولى و... الأخيرة؟؟.

(غاضبة) طبعاً الأخيرة... اسمع يا هذا... يا زيزو افندي... إن كانت أفكارك، تشرد ذات اليمين وذات الشمال، فَلأَقْطَعَنَّ الرأس الذي يُنتج هذه الأفكار الهوجاء... زيزو... وراءك رجل لا امرأة... وراءك جيهان، أيها الافعوان الأُلعبان...

(فرحة) ههه... هكذا يتكلم الأبطال... هذا كلام الذهب الابريز يا زوجي العزيز... سلّم الله هذا الفم، وابقاك لزوجتك والأم...

ماذا؟. الهدية؟. حسناً نتكلم في الهدية... ونوعها والهوية...

●

اسمع يا سيدي... اطلبُ واتمنى... اطلب واتمنى، أن تهديني بهذه المناسبة العزيزة الغالية... ماذا ماذا؟. إي... رشاش!!!.

(صارخة) هيا!. ماذا دهاك يا هذا؟. لماذا اصفرّ لونك، وبحلقت عينك؟. رشاش... نعم رشاش... هدية عيد ميلادي رشاش... راء شين الف شين... رشاش...

يا حبيبي... يا ابن امك وابيك... أنا لست طفلة رضيعاً لتهديني رشاشاً لعبة... اريد رشاشاً حربياً... حربياً... سريع الطلقات، بحقٍّ وحقيق، واريد معه، حوالي الف رصاصة... ذخيرةً حية لا ميتة... حية جداً... تطلق لها العنان، فتجندل الفرسان...

(مستدركة بفزع) زيزو... لالا... ارجوك... لا تهرب مني

يا حبيبي، ما عاش الذي يوجّه صوبك رشاشاً مزيّفاً، فكيف بالحقيقي؟. اسمعني جيداً يا رجل، وحاول أن تتفهم غايتي... أنا أريد رشاشاً للسلام وليس للحرب.

ماذا؟. لم تفهم كيف يكون الرشاش، بالذخيرة الحية، اداة سلام لا اداة حرب؟.

مسكين انت يا زيزو. كم ينقصك لتفهم السياسة... يا سيدي. اجلس فأفَهِّمك... اجلس هنا على الكرسي الهزّاز... وكن في حالة ريلاكس... نعم ريلاكس... يعني استرخاء... استرخاء... عظيم هكذا...

●

اسمع يا سيدي... لن نتكلم عن الدول الكبرى التي، من اجل خدمتها المخلصة جداً للسلام، اخترعت ازراراً إذا كبستها اصبع، تفجرت الكرة الأرضية، بمن عليها من إنسان، وحيتان وصئبان[1]...

لن نتكلم عن هذا السلام الكبير... ودعنا نتكلم عن سلامك وسلامي... عن فائدتي وفائدتك... عن ضمان مصالحنا ومنافعنا... كيف؟. اشرح لك كيف...

زيزو... إذا قدمت لي الرشاش (الكادو)... اقصد الرشاش الهدية... خضارك تؤمن حتى باب بيتك، إن لم تكن مجاناً، فبسعر الكلفة... فاكهتك كذلك... رزّاتك سكّراتك لحماتك عظماتك... سلمت لحماتك وعظماتك!!.

إذا حطّ بك وبي الدهر، رشاشنا يرش علينا أموالاً... معاملاتك في

---

(١) الصئبان: صغار القمل.

الدوائر الرسمية، تنجز كيفما تريد، وساعة تريد... الأفضلية دائماً لك...
أينما رحت وأينما جئت، حقك محفوظ مصان، وحق غيرك ضائع هربان...

ولكي تطمئن إلى صدق كلامي، اسمع هذه النادرة...

●

منذ يومين، ذهبت إلى الدوائر المالية، لادفع ضريبة البيت... كان الناس واقفين امام شباك الضرائب كيوم الحشر... ولا أمل لكل منهم أن يبلغ الشباك، في يومه ذاك...

فجأة أحد لابسي الكاكي... ومسدسه مغروز في حزامه... شوهد يشق صفوف الناس الصابرين المختنقين، و...

- زِخْ من طريقي يا با... زِخْ هكذا زِخْ... وأنت أيضاً... وأنت وأنت.. وانشق الصف يا زيزو، بقدرة قادر، يميناً وشمالاً، وفتحت الطريق للمسلح المحترم... الذي يخدم بسلاحه طبعاً، السلام في هذا البلد...

بلغ شباك الضرائب... طبعاً ليس ليدفع الضرائب... إنما ليعيد الإشعار، المرسل إليه لدفع الضريبة، وليقول لمسؤول الضريبة، إن الموجّه إليه الإشعار مجهول الإقامة.

نعم مجهول الإقامة، مع أنه واقف أمام عيني المسؤول، كاليمامة... أو كحمامة ابي فراس... طيّب الله له، في شعره، الأنفاس.

هذه واحدة يا زيزو... إليك الثانية يا عزيزو... أقصد عزيزي...

●

في يوم تلا فترة احتكار الطحين والخبز. ازدحمت الناس أمام

الأفران... وصار الرغيف، حلم كل قوي وضعيف...

وقفت أنا بين الناس كالناس... انتظر دوري للحصول على الخبز الغالي النفيس...

لعلع الرصاص خلف الناس المكبوسين على بعضهم، كالسردين في علبته... وانفجر الناس، يفرّون عبر كل زاروب وسرداب، كأغنام دَاهَمها قطيع ذئاب... وصارت الطريق سالكة وآمنة، إلى الخبز والخبّاز، امام صاحب الأداة الساحرة... الرشاش...

زيزو... بقيت واحدة...

●

عند الإشارة الضوئية، الواقفة على مفرق طرق رئيسي، غاب شرطي السير، بسبب ظروف الحرب الإستثنائية... انانيّو السير، تسابقوا على افضلية المرور، فحدث ما يحدث عادة... تداخلت انوف السيارات بعضها في بعض و... وتجمّد السير... وراح الأبرياء من الساقة، ينتظرون الفرج، وهيهات الفرج والمخرج.

في هذا الحشر الفظيع، لعلع الرصاص... من جهة ما... انفتح السير بسحر ساحر... ولكن ليس لينتظم، بل فقط من أجل أن يمر صاحب السعادة والسيادة، مُلَعْلِعُ الرصاص.

●

والآن يا عزيزي زيزو ما رأيك... دام فضلك؟.

هيا قم وأحضر لي الهدية بسرعة... نعم؟. الرشاش لن يحضر؟. لماذا يا هذا؟. خائف انت عليّ؟. وما يخفيك يا... بني؟. آل كابوني

بذاته، لا يجرؤ على رفع رأسه، في وجه جيهان، ورشاشها في يدها...

ماذا؟. خائف عليّ من كلام الناس؟. وماذا يقول هذا الـ... «كلام الناس»؟.

سيقول: إنني مجردة من الإنسانية؟. لالا يا حبيبي اطمئن. لن ادعهم يبلغون هذه المرحلة... كل يومين أو ثلاثة، أُعلن بياناً أقول فيه: إن هذا الرشاش، لم أحمله إلا لخدمة الشعب، لحمايته من الأعداء، والأصدقاء، والإستعمـــــار، والإستهتـــــار، والإستثمـــــار، والإستبـــــداد، والـ... والإستكراد...

لا تخف عليّ يا زيزو، محسوبتك اصبحت حافظة هذه البيانات عن ظهر قلب... نعم؟. من يصدقني؟. أيضاً من هذه الناحية اطمئن... مَنْ يصدقني يصفّق لي... ومن لا يصدقني... لا يصفق لي طبعاً... ولكنه يظل صامتاً... لأنه لا كلام ولا اعتراض ولا ردّ... والرشاش في اليد...

●

(مفاجأة) زيزو... ماذا تقول؟. اين أفر من الضمير والإنسانية و... والله؟.

زيزو لقد اقشعر بدني من سؤالك هذا.

حقاً يا زيزو حقاً... هؤلاء الثلاثة، لا يصدقون الشعارات الجوفاء، ولا يخافون الرشاش ولا ذخيرته الحية...

زيزو... اصرف النظر عن الهدية الرشاش...

هدية عيد ميلادي؟. قرنفلة... نعم نعم... زهرة قرنْفل بيضاء... رمز المحبة والطهارة... لماذا؟.

لأقدمها، بدوري، هدية للبنان. وشعب لبنان... ومع القرنفلة احمل لي نسخة من الإنجيل، ونسخة من القرآن... لأقرأ فيهما، واصلي إلى الله كي يعود الشرطيّ إلى شارعنا... لأن الشرطيّ، وحده، قادر على أعادة السلام والنظام والمحبة، التي هجرت شارعنا... منذ سنين...

١٨ ـ سنتراليست

ـ غنّوم... سنتراليست المبنى الذي نسكنه، بطل حكاية طريفة مفيدة... طريفة لأنها تضحك وتبكي في نفس الوقت... ومفيدة لأنها تحكي قصة اخلاقية، ياما ترددت وتتردد، في مجتمعاتنا الراقية، والمتخلفة على السواء... وعلى السواء أيام السلم والحرب.

غنوم سنتراليست... لكن من حيث اللقب فقط... أما من حيث الفعل فإن سنتراله ليس فقط يحرم سكان المبنى من خدماته... بل إنه يتلاعب بأعصابهم، حتى درجة حرق هذه الأعصاب أحياناً...

تسألني كيف؟. إليك الحكاية من أولها...

●

ذات يوم من أيام إبليس... قرع شاب في العشرينات من عمره، يدعى غنوم، باب وكيل المبنى الذي نسكنه... وقال في رقة ومسكنة:

ـ عاطل عن العمل، وابحث عن عمل شريف، اكسب منه لقمتي الشريفة... فهلاّ ساعدتموني ساعدكم الله؟.

اتفق يومها أن سنتراليست المبنى السابق، كنّا قد سرّحناه من العمل، بسبب أخطاء ارتكبها فيه، جعلت ضرره أكثر من نفعه... فما إن شاهد وكيل المبنى، غنوماً الشاب العاقل الحييّ الخلوق، حتى قال في نفسه:

ـ والله هذا مساعدته واجبة، لا مستحبة فقط.

واستفتانا في غنوم:

ـ يا أصحاب الشقق... ما رأيكم في غنوم سنتراليست للمبنى.

ـ .رأيك الأحكم يا وكيل المبنى.

ـ غنوم... لقطة... غنوم فرصة طيبة... غنوم... ضالتنا المنشودة.

ـ حسناً... العطشان... ماذا يريد؟. شربة ماء... وغنوم، كما ترى، ينبوع من الماء النمير...

●

ونُصِّبَ غنوم في اليوم التالي... سنتراليست للمبنى، صلة وصل هاتفية طيبة، بين سكان المبنى والعالم... بين داخل المبنى وخارجه...

وفي اليوم التالي سعد أصحاب الشقق وفرحوا، حين رأوا غنوماً وراء جهاز السنترال في مدخل المبنى... والسنترال ماشٍ كالساعة المضبوطة، وخطوط الهاتف متوفرة للإرسال والإستقبال... والمخابرات الهاتفية توزّع على الجميع بانتظام... وصرخ الجميع بحماس:

يا لفرحتنا بغنوم!...

لكن!.

لكن أياماً قليلة مضت... وصرخ الجميع بإحباط:

يا لمصيبتنا بغنوم!.

●

نعم يا لمصيبتنا بغنوم!.. لأن الفرحة به لم تصمد سوى اسبوعين...

وبعدها... آلو غنوم، آلو غنوم... والجواب... لا غنوم ولا سلوم... السنترال المتكلم سكت... والمكالمات التي ازدهرت في أوائل أيام عهد غنوم، توقفت على الخطين... الخارج من المبنى والداخل إليها.

يا أولاد... انزلوا إلى كوخ السنترال واسألوا غنوم، لماذا لا يرد على التلفون...

نزل الأولاد وعادوا بالجواب:

ـ يا بابا، غنوم غائب عن السنترال... قيل لنا، إن شهيته انفتحت على كنافة عبد الواحد الحلونجي، فقصد محله يقفل بها انفتاح شهيته...

●

ـ آلو غنوم... أريد مخابرة دولية، كي يؤخروا شحن البضاعة... فإذا لم تجْرِ هذه المخابرة حلت بنا كارثة تجارية...

خطوط غنوم مشغولة.

آلو غنوم، الولد حرارته مرتفعة جداً، اريد الاتصال بالطبيب على عجل...

خطوط غنوم مشغولة...

طار عقلي... نزلت كالمجنون، أريد إجراء الاتصال بالطبيب من الشارع، بعد أن كفرت بغنوم وسنترال غنوم.

وما إن وصلت إلى مدخل البناية، تطلعت داخل كابين السنترال، فوجدت ما تقشعر منه الأبدان...

سمّاعة التلفون ملقاة جانباً عن جهازها، لكي يظل الجهاز على الدوام يعطي اشارة «الخط مشغول»

وغنوم... غنوم الشاب الرقيق العاقل الخلوق، مسترخ على كرسيه المتحرّك، ورجلاه مرفوعتان على طاولة السنترال، في وضع استرخائي مريح، وفنجان قهوة فواحة الرائحة امامه، وأصابع يده تحتضن سيجارة فاخرة مشتعلة...

ولكي تكتمل سعادة غنوم ورفاهية جلسته، امسكت يده الأخرى بمجلة رخيصة، راحت عيناه الخبيثتان تتنزه بين رسومها الفاضحة العارية...

●

يا غنوم!.. يا ناكر الإحسان والجميل!..

المبنى وسكانه، مصالحهم وعلاقاتهم ومشاكلهم... كلها وضعت امانة بين يديك حين تسلمت عملك... لكنك اسأت الأمانة، وقطعت ما بين داخل المبنى وخارجه، فجمّدت مصالح سكانه واربكت اعمالهم، ودمرت أمنهم الاجتماعي.

يا غنوم... لو كنت اميناً على هاتف دولي، وفعلت ما فعلت، لقامت بسببك مشاكل دولية خطيرة...

يا غنوم... لو كنت اميناً على هاتف مستشفى، وفعلت ما فعلت، لتهددت بسببك عافية مرضى، بل شفاؤهم، بل حياتهم...

●

لم أتمالك نفسي وأعصابي، وهجمت على غنوم، كالذئب الكاسر، فانتزعت من أصابعه السيجارة، وقذفتُ بقهوته عرض الحائط، وأخذت المجلة الشائنة من يده، ولففتها كالعصا الغليظة، ورحت اقرع بها راسه،

حتى وهو يعدو، وأنا اتبعه خارج المبنى... إلى حيث لا رجعة لشيطانه ولا عودة...

وعدت لاعيد السماعة إلى مكانها في جهاز السنترال، وأنا احمد الله، على أن لم تكن المجلة الشائنة عصا غليظة، فلو كانت كذلك، لكنت اليوم نزيل السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة، ولكانت غنيمتنا بغنوم، ثمينة سمينة.

عادت السماعة إلى جهازها... واستراحت الخطوط، المشغولة دائماً، من متاعب شغلها... أما نحن فقد بدأ شغلنا ومتاعبنا في ذلك اليوم.

نعم... عدنا من جديد نبحث عن بديل لغنوم، الذي كان بديلاً لسلوم، الذي كان بديلاً لكرّوم...

علامَ تضحك قارئي؟. أنسيت أننا نعيش الزمن الرديء؟.

١٩ ـ تلوّث صوتي

ـ يا جيران... بحياتكم... وطّوا التلفزيون... نريد أن ننام... نريد أن ننهض إلى أعمالنا باكراً.. رؤوسنا طاشت... وأعصابنا توترت... وبيئة حيّنا... صارت بيئة ملوثة...

ـ هيـه... مـن أنـت؟. ولمـاذا تخطـب عـن البلكـون.. يـا.. شيشرون؟!.

وأجاب شيشرون:

ـ لماذا أخطب؟. أريد أن أنام يا أخي... أطفيء هذا التلفزيون...

ـ أُطفيء هذا التلفزيون؟. عال والله... قل لي مَنْ وظّفك مبرمجاً لحياتي؟. أنا أشاهد فيلم السهرة... هوايتي أن أشاهد فيلم السهرة صوتاً وصورة.

ـ حسناً، شاهده وحدك... لا تجبرني على مشاهدته معك غصباً عني.

ـ أنا لا أغصب احداً على مشاركتي الفيلم...

ـ لكنني اسمع صوته، حتى حين أخفي رأسي، ومعه أذناي، تحت اللحاف...

ـ هذه ليست مسؤوليتي يا جار...

ـ عجيب... ليست مسؤوليتك؟. مسؤولية مَنْ إذن؟.

ـ مسؤولية أصحاب التلفزيون ومخترعيه...

ـ ماذا تعني؟.

ـ أعني أعني... قل لهم يزودونا بأجهزة وأفلام يسمعها صاحب البيت، لا أصحاب بيوت الجيران...

ـ هه؟. صدقت والله... من يطبخ الطبخة، عليه أن يمنع ضررها عن آكليها... وإلا فالطبخة تصبح داءً لا غذاء...

●

ـ أمسّيك بالخير يا تلفزيوننا... يا حبيب الملايين... يا مَنْ حوّلت ليالينا الموحشة أُنسَاً ومتعة... وسهراتنا الكئيبة فرحة ومسرّة...

يا تلفزيوننا المحبوب... إن كان أخوك الراديو الخبز، فأنت الفاكهة... وأن كان هو ملح الحياة العصرية، فأنت عسلها...

ـ ماذا يا هذا؟. ما بك؟. اختصر هذه الديباجة وقل ما تريده مني.

ـ شكراً شكراً... والله ما اريده... ليس أمراً ذا بال... إنما كنت أتساءل: مَنْ كان فيه كل هذه الصفات الحميدة التي ذكرت، هل يعقل أن يصير مصدر ازعاج... هل يعقل أن ينغّص بصوته نوم العامل المكدود، وجهد الطالب الدارس، وراحة المسترخي بسكون الليل؟. خاصة وأن ليالي الصيف تجبرنا على فتح نوافذ البيت وأبوابه... وعندها تصبح كل الطرق سالكة أمام صوتك الرعّاد، وهو في طريقه إلى أسماعنا وأعصابنا، في كل قصر، وكل بيت، وكل كوخ... اتصدق يا عزيزي التلفزيون؟.

ـ قل...

ـ عاهدني أولاً ألا تزعل من صراحتي.

ـ أعاهدك. . . هيا قل. . .

ـ ذات مرة. . . بلغ فيها انزعاجي من الصوت الهادر حد الأوج. . . فثارت ثائرتي وقلت: يا ليت مخترع التلفزيون، لم يخترعْه. . . وبصريح العبارة يا صديقي، كفرت تلك الساعة بكل المكاسب الإعلامية والتكنولوجية والثقافية التي نلتها على يديك. . .

ـ حسناً يا هذا. . . ولكن ما مسؤوليتي أنا في هذا الإزعاج!.

ـ لالا. . . لست وحدك المسؤول. . . المسؤولية تقع أيضاً على الأيدي الأنانية والمتخلفة حضارياً واخلاقياً، التي تسيء استعمالك، تسيء الإستفادة منك، تحولك عند البعض، من أداة حضارية إلى أداة لتلويث البيئة. . .

ـ اتتكلم عن تلوّيث البيئة حتى وأنت تتحدث عن ازعاج الصوت؟.

ـ نعم. . . الضجيج في حياتنا العصرية، صار آفة للتلوث البيئي، صار أكبر مصدر من مصادر تلويث البيئة. محق أنا في قولي أم مخطيء؟.

ـ افضل الحكم في نهاية حديثك.

ـ الضجيج كالجرثومة تماماً. . . ياما ترى بين أناس هذا الزمان، أمراضاً عضوية سببها الأوحد، القلق، أو الأرق الذي يسببه ضجيج الحياة وعجيجها. . .

ـ أنت كثير الكلام يا هذا. . . ألا تشبه أنت أيضاً جهاز راديو أو جهاز تلفزيون؟.

ـ نكتة ظريفة، مع ذلك ارجوك ألا تتضايق مني، إذا أكثرت الكلام. . الموضوع يستحق الإهتمام، ويتطلب التحليل. . . أنت أيها التلفزيون من أهم مكونات حياتنا العصرية. . . نظرة واحدة، من فوق سطح مبنى، إلى شبكة

هوائياتك المهيمنة على المدينة، تُظهر كم أنت مهم وخطير. . .

مسيرة ليلية، في أي شارع من شوارع المدينة، توضح اهمية المشكلة. صوتك الهادر وراء كل باب ونافذة. حوّل المدينة إلى تلفزيون شاسع الأبعاد عملاق، والناس داخل احشائه، يبهر عيونهم بأضوائه الملونه، ويؤزّ أعصابهم بصوته أزّا. . .

ـ حسناً. . . فما العلاج؟. كيف تُعالَجُ هذه المسألة في رأيك.

ـ في الحقيقة لا يعالج المشكلة إلاّك أيها تلفزيون الـ . . . مزعج. . .

ـ نكتتان في عبارة واحدة. . . اهنئك.

ـ نكتتان في عبارتي؟.

ـ نعم. . . واحدة ظريفة وهي مناداتك لي بالمزعج، والثانية سخيفة وهي التي تنصّبني معالجاً لمشكلة أنا أوجدتها. . . وبعبارة أخرى أنا المشكلة وأنا العلاج. . . أنا الخصم وأنا الحكم. . .

ـ بالضبط. . . هذا رأيي. . ولإيضاح هذا الرأي أقول: زعامة التلفزيون لدى الجمهور، ومحبتهم له، كفيلتان بفتح صدورهم، لتلقي أي علاج، يقترحه التلفزيون لحل المشكلة. . .

ـ بدأت أفهم الفكرة. . . هلاّ فصّلت؟.

●

ـ قل لجمهورك يوماً بعد يوم. . . إن استخدام التلفزيون، يشبه استخدام أية أداة، أي اختراع مفيد. لذلك، فله آداب، على المستفيد منه أن يراعيها، ويطبقها بأخلاق عالية.

قل لجمهورك: كل بيت له أجواؤه الإقليمية، التي تشبه، إلى حد بعيد،

المياه الإقليمية لأي بلد من البلدان، وكما يعتبر دخول أي غريب أو أي عدو المياه الإقليمية لأي بلد، إعتداء على سيادته، كذلك يعتبر اقتحام صوت التلفزيون، أو الراديو، أو زمور السيارة. . . لاجواء بيت جارك الإقليمية، اعتداء على سيادة سكانه، وحريتهم واستقرارهم النفسي والعائلي. . .

قل لمشاهديك يا تلفزيون، إنه من الناحية الفيزيولوجية والصحية. . . إذا اعتادت الأذن على الأصوات العالية، تَفْقُد، مع الزمن والعادة، حساسيتها للأصوات الخفيضة أو الخفيفة، وعند ذلك تصاب بالصمم الجزئي أو النصفي، وتفقد بالتالي، متعة سماع الأنغام الناعمة، والموسيقى الخفيضة، طيلة حياة صاحبها. . .

بين إعلاناتك، يا زعيم الإعلان الناجح الفعال، لماذا لا تذيع إعلانات من نوع جديد، على هذا النمط مثلاً:

●

عزيزي المشاهد الصغير. . لقد انهيت الآن، دون شك، فروضك المدرسية، وحفظت دروسك، وجلست إلى شاشة التلفزيون. . . لكن هل خطر ببالك، أن تلميذاً مثلك، في البيت المجاور، لم يَنْتَهِ بعد من دروسه وفروضه. . . ولكي ينتهي منها، لا بد من أن يركز تفكيره فيها، وتركيز التفكير يلزمه هدوء. . .

صوت تلفزيونك العالي، يا عزيزي المشاهد الصغير، حرمه من الهدوء اللازم. . . ولذلك فهو مرتبك، لا يدري كيف يكتب وكيف يدرس. . . ما رأيك أن تساعده في حل هذه المشكلة؟. تسألني كيف؟. بكل بساطة، وطّي صوت التلفزيون، تنحلّ مشكلة جارك. .

●

إعلان آخر يا صديقي التلفزيون، يمكن أن تبثه، مثلاً، قبل المسلسل المحلي، أو الأجنبي لا فرق... وعلى هذا المنوال:

مشاهدي الكريم... هل خطر ببالك، أنه من المحتمل، أن يكون في غرفة من غرف المباني المحيطة ببيتك، مريض دخل في اغفاءة نوم، ضرورية لشفائه، وخلاصه من أوجاعه؟. إذا خطر ببالك ذلك، تأكد أن صوت تلفزيونك العالي، سوف ينغص عليه اغفاءته، التي هي، عنده، مفتاح الشفاء؟.

●

وفي بداية الفقرة الأخيرة من برنامج السهرة، يمكن أن تطل المذيعة على شاشتك، بابتسامتها الجميلة، الشديدة الإقناع، وتخاطب المشاهد:

عزيزي المشاهد... هل تعلم أن ثلاثة أرباع سكان بلدك، توجهوا الآن إلى مضاجعهم، أو أنهم دخلوا في نومهم العميق منذ زمن؟. هذا يعني؟. أن ثلاثة أرباع الطاقة الإنتاجية لوطننا، تستعيد الآن قوتها ونشاطها المطلوب، لانتاج اليوم التالي... هل تعلم، أنك إذا ساعدت هؤلاء النائمين، على النوم المريح، تكون قد دعمت الطاقة الإنتاجية لوطنك، وضمنت له الإزدهار الإقتصادي والإجتماعي، الذي تضرر كثيراً بحرب السنوات العديدة؟. النوم المريح، عزيزي المشاهد، لا يكون أبداً، مع صوت تلفزيونك العالي...

●

حبيبنا التلفزيون... إذا قلنا هذا الكلام للمشاهدين، في اطار حملة مدروسة، لا بد أن يعطي ثمرته الطيبة، في مكافحة الضجيج، ليس فقط ذاك الصادر عن التلفزيون، بل الصادر أيضاً، عن كل مصادر الأصوات المزعجة.

آه آه... تُرى هل تعود أيام زمان... أيام كانت بيروت، وكل مدينة في لبنان، تنام وتستفيق، في أحضان السكون الذي ما كان يعكره، إلا همس أمواج البحر، وتغريد العصافير المبكرة، للقاء الضياء والغذاء؟.

ـ أنت تحلم يا عزيزي...

ـ أنا أحلم يا تلفزيون؟.

ـ وأحلامك لن تتحقق إلا في المدينة الفاضلة... اتعرفها؟.

ـ أعرف المدينة الفاضلة التي تَوَهَّمها أفلاطون... لكن، لتعلم أن احلامي هذه رأيتها حقيقة وواقعاً.

ـ أين؟. أين؟.

ـ في مدن فاضلة راقية... يد الإنسان فيها، لا تدير مفتاح التلفزيون، قبل أن يفكر صاحبها بالجيران، وراحة الجيران، وصحة الجيران...

٢٠ ـ عدوانية

ـ (بتصميم هادىء) زيزو... استعد... لا تقل أني غدرتك... تغريني خطة وتلحّ عليّ بالإغراء... وهي أن أهاجمك بالمخدات والطنافس وقناني البلاستيك الفارغة... (صارخة) زيزو... أنا بدأت الهجوم... دافع عن نفسك... (قرقعات) خذ... خذ... وهذه... على رأسك... على ظهرك... ووجهك أيضاً لن ينجو من قذائف الهجوم... هه... هه... هه...

(بزفرة ارتياح) آه!. خَيْ!. استرحت الآن...

●

(صارخة) هيه... كفّ عن الصراخ... قد يسمعك الجيران... يا سيدي، نعم، أنا مجنونة... وستون مجنونة...

ماذا؟.. احتاج إلى عصفورية؟. مستشفى أمراض عقلية؟. لماذا يا حبيبي؟. لأنني هاجمتك؟. هاها... مسكين كم أنت متخلف حضارياً... رجل ديموديه أنت (demode)... بقليل من المخدات والقناني الفارغة اهاجمك، فتنعتني بالمجنونة؟.

مسكين!. نعم؟. وهل من الضروري أن يوجد سبب للهجوم، قبل أن اهاجمك؟. ابداً يا حبيبي.. . عَنَّ على بالي أن اهاجمك فهاجمتك، تلك هي الحكاية وما فيها...

ماذا يسمى هذا التصرف؟. بكل بساطة، يسمى «العدوانية».. الروح العدوانية... غريزة العدوان... التلذذ بالإعتداء على الآخرين وتعذيبهم...

هكذا درسنا في الكتب الوافدة علينا من الغرب... (بدهشة) هه؟. وامصيبتاه في هكذا زوج!. حتى الآن لا تعرف ما هي العدوانية؟. ألا تؤمن إيماناً أكيداً بأنك متخلف ثقافياً وسايكولوجياً!.

اسمع يا زيزو... كلمة واحدة لا ثانية لها... إما أن تصبح عدوانياً وعصرياً، وإما أنا وأنت في هذا البيت، لم يعد لنا حياة مشتركة... نعم... واصر على ذلك... فما قولك؟.

ماذا؟. حسناً حسناً... ذاك يريحني... يبدو أنك قريب من التفاهم... اسمع، اشرح لك القضية...

●

الدولة القوية، حين يكون لها مطمع في دولة ضعيفة... تهاجمها أم لا تهاجمها؟. براڤو، تهاجمها... ماذا تقول؟. لا تهاجمها إلا إذا كانت هناك ذريعة للهجوم؟. صحيح... إذا وجدت الدولة القوية ذريعة، فتكون جاءت والله جاء بها... وإن لم تجدها... تخترعها... نعم يا عزيزي، تخترعها... ما أسهل ذلك... الذرائع نستطيع أن نفبركها، إن نخلقها ساعة نشاء... والسبب؟.

السبب ممارستنا الطبيعية لنزعة العدوانية المتأصلة في الإنسان...

اذهب واستعرض أفلام السينما... تسعون في المائة منها، بنادق تطلق

الرصاص، مسدسات تفرقع، ورشاشات تترغل وتزغرد... ماذا تسمي هذه؟.

اسميها أنا «عدّة الشغل» للعدوانية... اسميها أدوات العمل للعدوانية... نأتي إلى جيرانك في الشارع والمنزل... مَنْ ترجوه أن يخفض صوت الستيريو يرفعه... والذي تناقشه بالحق يهاجمك بالباطل...،

الولد تقول له... لا تفرقع، يلعلع بالرشاش... ما السبب؟.

لا سبب... عدوانية فقط عدوانية.

لدى التلميذ لذة في مشاكسة المعلم واحراجه... هناك تلامذة يتناوطون على المعلم والإدارة... والسبب؟.

العدوانية!!.

سائق يطلق في وجهك زموره المزلزل ليجاوزك في السير، تفتح له الطريق، فيتجاوزك وهو يلتهمك بنظراته النارية الشرسة... لماذا؟.

عدوانية!!...

الأحداث الحربية التي عشناها في وطننا وما زلنا نعيشها... فتش (بَخْبِش)، تجد العدوانية كامنة وراءها...

كيف خلقت العدوانية؟.

هذه فلسفة... طبعاً فلسفة استوردناها من الخارج لكي نقطف ثمراتها الطيبة، ونُشْوَى بنارها الدافئة أكثر من اللازم...

والآن... استودعك الله يا زوج...

إلى أين؟. خارجة اشتري شيئاً من الخضار واللحوم... ولكن

اسمع... سأعود بعد ساعة، وإذا لم أجدك متحولاً إلى العدوانية، لا أنا زوجتك ولا أنت زوجي ... أسمعت؟. إل اللقاء...

●

(قادمة باكية) زيزو... أين أنت؟. تعال لاحدثك عن... (مستدركة دهشة) زيزو... ما بالك صانعاً بنفسك هكذا؟. طنجرة الكسرول على رأسك والشوبك في يدك... بينما المكنسة القش في يدك الاخرى؟. ما لك يا حبيبي؟. سلامة عقلك...

هاه... مستعد لكي تهاجم؟. صرت عدوانياً يا حبيبي؟. اخلع اخلع... اخلع الكسرول عن رأسك... وارم هذه «الكراكيب» من يديك...

(تبكي) لعن الله العدوانية ومَنْ اخترعها ومن صدّرها ومَنْ استوردها... اجلس لأحكي لك ما وقع لي...

●

وصلت إلى سوق الخضرة، وجدت سيارة صاحبتي «ميمو» متوقفة في الشارع... بروحي العدوانية احببت أن اؤذيها... أوقفت سيارتي في وجه سيارتها. واقفلتها فسَدَدْت عليها الطريق... وتركت السيارة وذهبت إلى السوق، ورحت اتبضع على الأقل الأقل من مهلي...

لكنني حين عدت وجدت (ميمو) تنتظرني، نافشةً شعرها كقطة مسعورة... وزوجها معها ينتظران عودتي منذ ساعتين...

(باكية) زيزو... ميمو فعلتها معي بالعيار الثقيل!... أجل أجل... وكل ذلك أمام عيون السوق وأهل السوق...

ماذا؟. ضربتني؟. لالا طويلة تلك على رقبتها... بهدلتني فقط... نعم نعم... بهدلة... بهدلة وحسب... لكن كما قلت لك (باكية) بهدلة من العيار الثقيل...

نعم نعم يا زيزو... الحق معك... عدوانية (ميمو) انتفضت في وجه عدوانيتي فانتصرت عليها... لذلك... آن الأوان لنتكلم كلمة جدّ ورصانة... عن العدوانية والعدوان...

●

يا أهلنا في هذه الأرض الفاضلة! هذه الفلسفات السوداء الوافدة علينا، ليست سوى انحرافات اخلاقية، وغرائز حيوانية، غريبة عن أدياننا، غريبة عن تقاليدنا، غريبة عن عاداتنا التي ورثناها أباً عن جد، في شرقنا الروحاني النبيل...

هذه الفلسفات السوداء، استوردناها من جهات معينة لاهداف معينة... لنقع في احابيلها، ونفكك بها مجتمعنا المتماسك الفاضل...

ولكي يسوّقوا مبادئها الخبيثة، فرّحونا بلقب «مودرن»، إذا اعتنقنا تلك المذاهب الشاذة...

أتساءل هنا لماذا لا نقلد الـ «مودرن» باخلاصه لوطنه، بمحبته لخير مواطنه، بتعلقه بالنظام، بنظافته، بإخلاصه للعلم والإنتاج.

العدوانية ليست سوى شريعة الغاب... بل إننا نظلم ساكن الغاب إذا نسبنا العدوانية إليه... فالأسد والأفعى والطائر، لا يهاجمك إلا إذا هاجمته، ولا يعاديك إلا حين تؤذيه... وعندها يصبح هجومه أو معاداته لنا، دفاعاً مشروعاً عن النفس... دفاعاً حضارياً إذا صح التعبير.

وحده الإنسان يمكن أن يهاجِمَ قبل أن يُهاجَم، وحده الإنسان يعتدي بمبادرة منه إلى العدوان. . . وحده الإنسان يسخّر العدوان للمكاسب والمغانم.

أدياننا السماوية، أوصتنا بأن ندير خدّنا الأيسر، لمن ضربنا على خدنا الأيمن، وحين أوصتنا بالحد الأدنى، للعدالة قالت: العين بالعين والسن بالسن. . . لكنها أبداً ما أوصتنا بأن نصفع مَنْ ألقى علينا التحية والسلام. . .

أخلاقنا ومناقبنا أوصتنا بالعفو عند المقدرة، ولم توصنا بالإعتداء على الآمن المسالم، أو أن نفتش عن ضحيتنا بين الأبرياء. . .

عودوا إخوتي وأخواتي إلى روحانيتنا وأخلاقنا. . . عودوا إلى لبنان المحبة والسلام. . .

٢١ ـ جردة

ـ إذا أردت معرفة واقع الحياة الإقتصادية والإجتماعية، لشعب من الشعوب، أنصحك بالدخول إلى غرفة حمام أحد افراده، واستعراض محتوياته.

ـ ماذا؟. أتهلوس يا رجل؟.

ـ أدهشتك النصيحة... هه؟. حسناً... فلكي تزول دهشتك... اتبعني واسمع الحكاية..

ـ تابع لك أنا... وسامع...

●

ـ أمس دخلت حمّامنا لأغتسل أولاً و... لأجرّب قنينة «شامپو» جديد، اخبرني بائعه، واخبرتني الإعلانات قبله، أنه يصنع العجائب...

ـ ما العجائب تلك؟.

ـ يقطع أولاً دابر قشرة الشعر إلى أبد الآبدين... يُنعّم ثانياً الشعر إلى دهر الداهرين... والذي ليس له شعر، ثالثاً، يُنْبِت له شعراً، ليس على رأسه فحسب، بل على باطن كفَّيْه، وأكعاب رِجْلَيْه...

ـ (ضاحكاً) عجائب هذه حقاً...

ـ في الحمّام واجهتني مشكلة...

ـ خيراً إن شاء الله .

ـ قنينة الشامبو العجيب المذكور أعلاه، لم أجد لها في الحمام مكاناً أضعها فيه . . .

ـ غريب . . . ايضيق حمامك عن استيعاب قنينة شامبو صغيرة؟ .

ـ إي وحق رأسك الحليق . . . لم أجد لهذه القنينة الوافدة حديثاً إلى حمامنا، مكاناً أضعها فيه . . . حافة المغطس، ملآنة، على عرضها، ورف مرآة المغسلة، لا تجد عليه «مِغزَّ ابرة» فارغاً . . . خزانة الحمام المعلقة على الجدار، تكاد تصبح غير معلقة، من فرط ما تحويه من اثقال . . . عندها صِحْتُ بربّة البيت، أم البنين والبنات، صيحة آخيلا في حروب الأغريق . . . وردت هي على الصيحة بزعيق ثكالى اسبارطه :

ـ ما بك يا زوج؟ . اخفض صوتك . . . اظنه بلغ الشارع . . .

ـ ليبلغ الضاحية أيضاً، وتلال عرمون . . . اريد أن أعرف . . . ألا يحق لي، في هذا الحمام، أن أمتلك مساحة مائة سنتمتر مربع، أضع فيها قنينتي؟ .

ـ بلى . . . يحق لك . . .

ـ حسناً . . . يحق لي نظرياً . . . أما عملياً، فانظري بربك . . . أين اضعها؟ . . . الإزدحام شديد . . . هيا تفضلي واجرفي كل هذه النفايات من هنا، وألقيها خارجاً . . .

ـ ماذا ماذا ماذا؟ . نفايات؟ . وألقيها خارجاً؟ . الله وحده يصون لك عقلك . . . الظاهر فلوسك تضخمت وبدأت التبذير والإهدار . . .

ـ اسمعي يا امرأة . . . أنا لا أتكلم عن الفلوس . . . أنا أتكلم عن هذه الخردة الموجودة على حافة المغطس هنا . . .

ـ والخردة هذه ـ حسب زعمك يا فيلسوف دهرك ـ لا تُترجم، لدى سعادتك، إلى فلوس؟.

ـ تترجم إلى فلوس؟.

ـ هل تريد أن استعرض لك الموجود، وأسعاره، حتى تضع اصبعك على الجرح، وتتأكد من أن هذه المستحضرات، هي أموال طنانة رنانة؟!.

ـ (محدثاً نفسه) فكرة جيدة والله!... خاصة وأن محتويات الحمام هذه، كلها بضاعة كماليات، لا تدخل مطلقاً في اساسيات حياة الإنسان... بضاعة تجميل وتزويق وتنعيم ليس إلا... فلماذا لا نحصي بالأرقام، كم نهدر عليها من أموال؟. خاصة وأنني أنا ضحيتها البريئة الأولى. (معلناً) يا أم البنين والبنات... اقتراحك مقبول غير مردود. فهيا نترجم هذه الأشياء إلى نقود... استعرضي أنت الأصناف واسعارها، بينما أنا أتولى التدوين والجمع...

ـ حسناً... مستعد؟.

ـ ويدي على القلم... والقلم على الورقة...

●

ـ شامپو لشعور أفراد الأسرة... أربعة أنواع... للشعر المدهن (١٢) ليرة[1].

ـ للشعر المدهن... (١٢) ليرة...

---

(١) التسعير يعود إلى السبعينات حيث كان سعر الدولار الأمريكي لا يساوي أكثر من ثلاث ليرات.

ـ للشعر الناشف (٩) ليرات.

ـ (٩) ليرات.

ـ للعادي (١٥) ليرة.

ـ (١٥) ليرة.

ـ للحساسية (١٣) ليرة... اجمع.

ـ المجموع (٥٠) ليرة للشامبو فقط... نعم... ننتقل إلى غيره..

ـ ننتقل إلى مزيل الروائح... (٥) ليرات فقط...

ـ غيره.

ـ كريم لتنعيم الأيدي (٦) ليرات... صابون وجه للحساسية (٧) ليرات...

ـ (٧) ليرات.

ـ مَسْكَرَة لرموش العينين...

ـ مسكرة لرموش العينين...

ـ (١٦) ليرة.

ـ (١٦) ليرة مسكرة؟. هذه والله مسخرة... هيا تابعي...

ـ كريم أساس.

ـ أهناك أيضاً كريم أساس؟.

ـ اختراع جديد.

ـ لا بدّ أن مخترعه مهندس معماري... إي... كريم أساس.

ـ مع ڤيتامين مغذي للبشرة (٢٥) ليرة.

ـ (٢٥) ليرة، يا للأسعار المتدنية!. (٢٥) ليرة كريم أساس مع ڤيتامين مغذٍّ للبشرة... يبدو أن البشرة، صارت هذه الأيام، تأكل وتشرب وتتغذى تماماً مثلنا... تابعي يا زوجتي الغالية... تابعي...

ـ استكثرت الـ (٢٥) ليرة هه؟. قلت لك إنه مغذٍّ للبشرة...

ـ حسناً حسناً... عسى ألا يحرمنا غذاء البشرة، من غذاء المعدة... تابعي...

ـ طقم أقلام حُمْرَة (١٥) ليرة... بودرة بعد الحمام.

ـ ولماذا البودرة بعد الحمام؟.

ـ لتطرية الجلد وتعطيره...

ـ هاه... فعلاً هذه لازمة وضرورية... ولكن... ألا يُطرّي الحمام وحده الجلد ويعطره؟.

ـ أكتب ولا تناقش...

ـ حاضر...

ـ بودرة لما بعد الحمام (٢٥) ليرة.

ـ(٢٥) ليرة؟ أعوذ بالله.

ـ يا رجل.. (٢٥) ليرة بالأوكازيون...

ـ بالأوكازيون؟. يا الله!!.. أنا أتساءل لماذا هذا الرخص في سعرها؟.

ـ كولونيا لما بعد الحمام.

ـ كولونيا لما بعد الحمام؟. على هذا الأساس ما لزوم الحمام إذن يا عزيزتي؟ لماذا لا نكتفي بأن نستحم بالبودرة والكولونيا؟.

ـ كولونيا لما بعد الحمام (٢٠) ليرة... أكتب ولا تجادل..

ـ حاضر.. ٢٠ ليرة، يا ساتر استر!..

ـ كفى صراخاً... هي تكفي ثلاثة أشهر...

ـ ههه... صارت معقولة...

ـ فراشي للشعر وأمشاط (١٥) ليرة.

ـ وامصيبتاه... لكي امشط شعري يلزمني هذا العدد من الفراشي والأمشاط؟. ألا تكون الموضة هذه الأيام، أن يكون لكل شعرة في الرأس مشط خاص بها وفرشاة؟.

ـ أومبر للرموش.

ـ ماذا؟.

ـ أومبر أو أم بي إر اي... يعني بالعربي... ظل... الظل الذي نجمل به أعيننا...

ـ شكراً على التهجئة والشرح.

ـ أومبر للرموش... مجموعة بـ (١٦) ليرة...

ـ مجموعة؟. ولماذا المجموعة يا ربي لماذا؟.

ـ كل نوع من هذه المجموعة، مخصص لفستان من الفساتين.

ـ هاه... الأومبر يوضع على الرموش بلون الفستان؟.

ـ عرفتها يا شاطر.

ـ هاه... عال... شكراً لايضاحك... علينا إذن أن نقلل الفساتين حتى تقل حاجتنا إلى أومبر الرموش.

ـ مانيكور ومقصات أظافر ومبارد...

ـ ومطارق ومعاول... أليست هي من الأدوات المطلوبة أيضاً؟.

ـ نكتة بائخة.

ـ حقاً بائخة... تماماً كهذه المستحضرات... هيه... هل نبدأ بالجمع أم نسينا شيئاً؟.

ـ ابدأ الجمع...

●

ويأتي حاصل الجمع: مائتا ليرة لبنانية نقداً وعداً... ويذهل الرجل المسكين أمام هذا الرقم الذي يعادل راتبه الشهري تقريباً، ويسأل بلهفة.

ـ زوجتي العزيزة... اخبريني... كم تكفينا هذه البضاعة؟.

ـ اطمئن تكفينا وقتاً طويلاً... شهراً ونصفاً تقريباً.

ـ واويلاه!... يعني المعدل الشهري لمصروفنا التجميلي، مائة وخمسون ليرة نقداً وعداً... شكراً يا زوجتي... انتهت مهمتك... دعيني

الآن مع صديقي، كي نجري سوياً احصائية مرعبة... أنت هنا يا صاح.

ـ هنا يا صاح... تكلم...

●

ـ مصروفنا يا ناس، على مستحضرات التجميل والتنعيم والتزويق والتعطير... مائة وخمسون ليرة شهرياً... أجل... مائة وخمسون ادفعها أنا ـ صاحب الدخل المتوسط المحدود ـ نقداً وعداً.

إذا افترضنا أن عدد شعب هذا البلد ثلاثة ملايين نسمة[1]، وإذا اعتبرنا متوسط عدد افراد العيلة خمسة اشخاص... يكون لدينا في لبنان ستمائة الف أسرة، أي ستمائة الف بيت، أي ستمائة الف حمام مثل حمامي... وطالما أن الهدر والتبذير، في كل حمام، يبلغ مائة وخمسين ليرة، فكم يبلغ الإهدار في كل لبنان خلال سنة واحدة...

ـ هيا يا كومبيوتر... شَغِّلْ حساباتك لنرى..

ـ شكراً يا كومبيوتر... كم؟. يا إلٰهي!. مليار وثمانون مليون ليرة تقريباً... يا إلٰهي!. الأرض تميد بي... اسندني يا صاحبي قبل أن اسقط.

ـ هدّيء روعك يا صديقي... انجاز الإحصائية يتطلب الصبر والصمود.

ـ ملياراً وثمانين مليون ليرة ننفقها، نحن الشعب الصغير، سنوياً على مستحضراتنا «الحضارية جداً» المذكورة أعلاه؟.

ـ ماذا يعني ذلك؟.

---

(١) هذا الرقم من المعطيات الديموغرافية للبنان في السبعينات من هذا القرن.

ـ يعني ما يعادل ميزانية الدولة. . . معقول هذا يا ناس؟.

ـ لا أدري. . . لا أدري.

ـ عسى أن أكون غلطان في الحساب والتقدير. . . لكنني إذا لم أكن غلطان، فالمسألة عسيرة الهضم. . . واقتصادنا في خطر. . . خاصة أن حمامي، بمحتوياته المحترمة، كان قبل الحروب اللبنانية، ينتمي إلى الطبقة المتوسطة في المجتمع اللبناني. . . لكنه الآن، وبفعل الحرب، فمن الأكيد أنه تدحرج إلى الطبقة السفلى، الطبقة الشعبية، الطبقة الفقيرة. . .

ـ ما المقصد من قولك هذا؟.

ـ المقصد أن هناك حمامات، غير حمامي، لا تكتفي مطلقاً بانفاق مائة وخمسين ليرة في الشهر، على مستحضرات التمدن. . .

●

ـ سؤال يا عزيزي. . .

ـ ماذا؟.

ـ إلى أين سائر هذا البلد الذي يتجمل بما يعادل ميزانية دولته؟.

ـ سائر؟. . . سائر؟. والله لا أدري إلى أين سائر. . . لكن لي سؤالاً اوجهه إلى أهل هذا البلد. . . أهلي وأحبابي. . .

ترى هل تحُلُّ بالجمال اللبناني كارثة، إذا صام سنة من السنوات عن مستحضرات التجميل، وانشأ بهذا المليار ويزيد، مصنعاً مثلاً؟. ولماذا لا يكون لهذا الصيام خطة عشرية مثلاً، ترتفع في نهاية تنفيذها، عشر مداخن لعشر مصانع في سماء لبنان الزرقاء؟.

ـ اقتراح جيد يا صاحبي... ولكن... هل يعقل أن يقعد الجمال اللبناني عشر سنين، دون مستحضرات تجميل...

ـ أبداً يا صاحبي... أبداً... يمكنه مثلاً أن يستخدم مستحضرات «ميد ـ إن ـ ليبانون»...

ـ «ميد ـ إن ـ لبنانون»؟. يعني ماذا؟.

ـ أعني المستحضرات الخالية من الغش والكذب والنفاق... أعني صابونة زيت زيتون أصلي، أو صابونة غار طبيعي، وليفة نعنع بري أو ما يسميه البعض «حَبَقَ المَيْ» الذي ينبت عادة على حوافي المجاري المائية، ورائحته تنعش القلب... وأنا كفيل أن الشعر، بهذه المستحضرات، يصبح شلة حرير، والبشرة تصبح كالمرآة، نعومة ولمعاناً، واللبناني واللبنانية، يصبحان كالوردة الجورية، منظراً ورائحة...

ـ يا صاحبي.

ـ نعم يا صاحبي؟.

ـ هذه الفكرة جيدة... من أين أتيت بها؟.

ـ أنا لم آت بها... أنا اطبقها...

ـ تطبقها؟.

ـ منذ سنين وسنين...

ـ م م م... عرفت الآن لماذا احتفظت بجمالك، مع أن عمرك عمر نوح.

ـ اوه... لعنة الله على الثرثرة... فاضحة الأسرار!!.

٢٢ ـ تغيير..

ـ آلو... نعم... من المتكلم؟. رفُّول؟. أهلاً رفول... عسى خيراً، ما هو الخبر؟. اوه... لا... متى حدثت الوفاة؟. رحمه الله، رحمه الله وأبقاك يا رفول... نعم كان رجلاً صالحاً حقاً... كم بلغ من العمر؟. خمسة وثمانين عاماً؟. صحيح؟. حسناً يا سيدي... عاش والحمد لله عمراً طويلاً... يا ليتنا نعيش عمره، وأو ثُلُثَيْ عمره...

و... وأين سَيُدفن؟. في بلدته؟. م م... والله لا أظنني قادراً على السفر إلى بلدته... غداً أنا مضطر للبقاء في بيروت لأداء عمل ضروري... على كل حال، سأبحث عن طريقة أخرى، أقوم بها بواجبي اتجاه أهل الفقيد... عوضنا الله بسلامتك يا رفول... وداعاً...

زكية... يا زكية... البقية في حياتك... أبو عماد أعطاك عمره... ماذا؟. لا لا أظن، لن استطيع حضور مراسم الدفن... الدفن في بلدته، والذهاب والإياب، إليها ومنها، ثلاثمائة كيلومتر على الأقل... فإذا افترضنا أنني ذهبت لحضور الدفن، فعليّ أن أعطل وظيفتي. ولو افترضنا أن المدير سمح لي بالتعطيل، فمصالح الناس سوف تتعطل بتعطيلي... وإذا... هه؟. ماذا تقولين؟. عليّ أن أحضر الدفن مهما كانت العواقب؟. وتظنين أن المراسم لا تتم إلا بحضوري لها؟.

اسمعي يا امرأة... أنتِ تهددين أيضاً؟. هلا صنعت معروفاً واهتممت بشغلك، وتركتني اهتم بشغلي؟.

اف. . . أعوذ بالله من كلمة «اف». . . أين التلفون؟.

●

آلو سالم؟. كيف حالك؟. نعم نعم. . . عرفت الخبر. . . لطوف اخبرني به منذ لحظات. . . اسمع يا سالم. . . اريد أن اسألك: هل أنت ذاهب لحضور مراسم الدفن في بلدة المرحوم؟. عظيم. . . مدهش. . .

اسمع يا سالم، ارجوك، سأكلّفك بالإعتذار من أهل الفقيد، عن عدم حضوري، وبأن تقول لهم. . . هه؟. يا إلٰهي. . . ما لك تلبسّتني كواحد من العفاريت؟. نعم؟. وأنت أيضاً يا سالم؟. يا أخي. . . والله لديّ عمل مهم لا استطيع إهماله يوماً كاملاً. . . مصالح الناس بين يدي. . . رحم الله المتوفَّى، لكن الأحياء، يحتاجون إلى إنجاز معاملاتهم ليعيشوا.

اسمع يا سالم. . . أفضل حل. . . أن أطيّر صباح غد برقية تعزية إلى أولاد المرحوم، وعند عودتهم إلى بيروت، أزورهم في بيتهم، وأقدم وجاهياً تعازيّ لهم. . . هكذا تكون المسألة خفيفة نظيفة. . .

ما بك يا سالم!. اضبط كلامك!. أنا انطوائي؟. وغريب الأطوار؟. ولا احترم عاداتنا وتقاليدنا؟.

مهلاً. . . مهلاً. . . خذني بحلمك يا سالم. . . دع التوبيخ والتلبيخ. . . أعصابي لا تحتمل ارجوك. . . حسناً يا سيدي حسناً. . . سأفعل ما تريد. . . ذاهب غداً ذاهب. . . سأحضر مراسم الدفن، وعلى بعد مائة وخمسين كيلومتراً، من الطرق الجبلية الخطرة. . . وحسب التقاليد والأعراف والأصول المرعية الاجراء. . . مبسوط؟. الحمد لله!!. . .

●

كم صفيحة بنزين عبّأت يا حبّوب؟. صفيحتين؟. لا... هما لا تكفيان عبّيء أربعاً... المسافة ثلاثمائة كيلومتر، وسيارتي، رعاها الله، ضد نظرية تقنين الوقود... هي بالوعة وقود... هيه... كم حسابك؟. حاضر... ثمانين ليرة[1] وحبة مسك... هلمي يا زوجة، اصعدي السيارة. تأخرنا...

ماذا؟. أفكاري مشتتة؟. وما ادراكِ بذلك؟. حسناً... أفكاري مشتتة... أتريدين الحقيقة أو ابنة عَمِّها؟. الحقيقة... صراخ اصحاب المعاملات الواقفين أمام مكتبي، يتردد في سمعي وكأنهم بقربي...

«أين هو هذا الأفندي؟. مصالح الناس ليست لعبة في يديه... أكثر الظن أنه ذهب في رحلة سياحية... إن لم استلم بضاعتي اليوم تلفت... ولن يسلموني إياها، إلا بعد انجاز المعاملة عند الأفندي السائح...».

●

السيارة تعطلت!. أعوذ بالله!. لم تجد مكاناً تتعطل فيه غير هذا المكان المنعزل الموحش؟. ماذا حدث؟. لا تعرفين ما حدث ياست الستات؟. كما ترين وتسمعين... المحرك اضطرب ثم توقف... دون مقدمات، ودون سبب معلوم... الكاربيراتور مسدود؟. وما ادراك بذلك؟. علمتك هذا جارتك؟. صحيح... الكاربيراتور انسدت فتحاته... طبعاً بفعل البنزين المغشوش... وطبعاً حسب سياسة التجار في هذا البلد... اسوأ بضاعة باغلى سعر... ثمانون ليرة ثمن بنزين مغشوش؟.

ماذا؟. تسألين عن الحل؟. لا حل إلا بالميكانيسيان... أين أجده؟.

---

(١) اسعار احدى سنوات الحرب، ثلاثون دولاراً تقريباً.

وما أدراني بمكانه في هذه الأرض الغريبة الموحشة؟. لكن... عليّ أن أجده حتى ولو كان في الصين... لا خلاص لنا من هذه الورطة إلا به...

أنت؟. مفهوم... أنت ستلازمين السيارة، ريثما أعود ومعي الميكانيكي المختص.

ارجوكِ كفي عن الصراخ في وجهي... لا بديل غير ذلك... أنت في السيارة، وأنا أبحث عن مصلح للعطل... أنت في السيارة، نعم حتى ولو جُنَّ الليل... حتى ولو أحاطت بك السباع و... وأكلتك...

●

ولسوء الحظ لم تأتِ السباع، ولا أكلت زوجتي... ولكن لحسنه أُصلحت السيارة، بعد جهد ومتاعب لا تعد ولا تحصى، وبعد تكفين ثمانين الوقود بخمسين الإصلاح، وعذاب التشرد... واستأنفنا المسيرة...

كم الساعة؟. الثانية بعد الظهر... مضى علينا ثماني ساعات منذ غادرنا بيروت... ماذا؟. أنت جائعة؟. حسناً وأنا جائع... أبداً جوعي لا يقل عن جوعك... لالا لن أقرع باب بيت من بيوت هذه القرى، لأقول لأصحابه: كسرة خبز يا محسنون... اعطونا مما اعطاكم الله يا عباد الله...

ما هو الحل؟. الحل، لا حل غيره. نلجأ إلى مطعم...

الحساب من فضلك... كم؟. خمسون ليرة؟. خمسون ليرة ثمن هذا الغداء الخجول؟. حسناً... هذه خمسونك... وداعاً...

●

وصلنا إلى بلدة المرحوم والحمد لله... الساعة؟. السادسة وثلاث عشرة دقيقة بالضبط... الواجبات أديّناها على الوجه الأكمل وحسب التقاليد

والعادات والأعراف... ثم كررنا راجعين من حيث اتينا... لكننا لم نبلغ «حيث اتينا» إلا بعد منتصف الليل...

إلا أننا حرصاً على الإستزادة من الإفادة، نعود زمنياً ساعات إلى الوراء... إلى الوقت الذي تركنا فيه بلدة الفقيد...

●

اسألك يا زكية... هل لاحظت اشارة، تدل على أن أهل الفقيد، قد علموا بحضورنا؟. ماذا؟. أتقولين: لا؟. يا ضياع التعب!!.

ارجوك لا تعودي إلى الصراخ في وجهي... عتمة المساء وازدحام الناس حول أهل الفقيد، منعهم من رؤيتنا، أو من تركيز انتباههم علينا... معذورون هم...

ها قد عدت إلى الصراخ واللوم!. يا ابنة حواء، ماذا كان عليّ أن أفعل، أكثر من أنني صافحتهم بعد الدخول، وصافحتهم قبل الخروج... هل كان عليّ أن اصرخ أمامهم وأقول: يا أهل الفقيد... أنا فلان الفلاني هنا مع زوجتي، تعالوا وخذوا لنا صورة تذكارية؟.

أنا لا اتهكم، اعملي معروفاً واسكتي... دعيني أعرف كيف أسوق.. الطريق خطرة، والعتمة حالكة، وإذا شغلت انتباهي بالمنازعات، قد نقضي الليلة في قعر أحد الوديان السحيقة... أقول الليلة؟. ولماذا لا يكون أبد الآبدين، ودهر الداهرين؟!..

●

آلو نعم... نعم سيدي المدير... صبّحك الله بالخير... والله طلع عليّ الصباح وأنا مريض... وكذلك زوجتي... المشوار كان مرهقاً ونحن لم نعتَدْ السفر الطويل... نعم... أوامرك سيدي... المعاملات متوقفة؟.

هذا شيء طبيعي. . . ماذا أفعل؟. لن أفعل شيئاً سيدي المدير أنا مريض؟. أحمل مرضي وآتي إلى المكتب؟. عفواً سيدي، حين أقف تميد بي الأرض. . . من المستحيل أن استطيع الوصول إلى المكتب، ورجفة الحمى تتنابني بين لحظة وأخرى. . . لا بأس لينتظر أصحاب المعاملات. . . بضعة أيام ويزول المرض، فانجز كل المعاملات. . .

ماذا تقول سيدي؟. في تأخير المعاملات خراب بيوت أصحابها من التجار؟. يا إلٰهي!. ما العمل؟. حسناً حسناً سيدي المدير، احمل مرضي وأذهب به إلى المكتب. . . لن يكون خراب بيوت الناس على يدي، حتى ولو خربت حياتي. . . أنا قادم. . . لكن ليس قبل أن أعلن هاتين الكلمتين:

●

يا ناس يا هُوا!. . . المجتمعات، مثل كل شيء على ظهر هذه الفانية. تَعْتَقُ كل خمسين أو مائة سنة. . . وعند ذلك يلزمها التجديد، تماماً كما تجدد ثيابك كلما رَثَّتْ حالها. . .

يا ناس يا هوا. . . ألا تلاحظون أن في مجتمعنا، اشياء واشياء صارت عتيقة؟. وأن تجديدها أو تغييرها صار ضرورة ملحة من ضرورات العصر؟.

نحن نعيش في عصر عجيب من حيث سرعة التغيّرات فيه، لدرجة أن السنوات العشر فيه، صارت تساوي جيلاً، أو قرناً كاملاً من قرون الماضي. السنوات العشر صارت حقبة متكاملة من حقب التاريخ. . .

مع هذا، فنحن ما زلنا متأبطين تقاليد وعادات صارت طاعنة في السن، صار عمرها مئات السنين. . .

والذي تسوّل له نفسه، منا، أن يقترب منها، ليعدّلها، أو يجدّدها بالشكل الذي يتلاءم مع الحياة العصرية، يتلقى الصفعات من كل حدب

وصـوب، وتصبـح اسمـاؤه الجـديـدة: انطـوائـي، مجنـون، مـارق، غـريـب الأطوار، عدو الناس، لأنه لا يعمل ما يحفظ قيمة الناس.

●

هاتوا، يا ناس، نفعل ما تفعله الدول الراقية... نقلّص أو نلغي تقاليدنا التي تشدنا إلى الوراء، التي تلتهم أوقاتنا الضيقة الثمينة، واعصابنا المرهقة بمشاغل العصر، ومالنا العزيز، الذي لم تُبْقِ لنا حاجات العصر منه إلا القليل...

بربكم... هل هناك أحلى من تلفون أو برقية تعزية، تجبر به كُسْرَ خاطر ابن فقيد؟. هل هناك الطف وارقى، من تلفون أو برقية تهنئة، تزيد بها فرحة فرحان بزواج؟.

ومع تعزية البرقية أو الهاتف، ومع تهنئة البرقية أو الهاتف، توفّر وقت مرسل البرقية أو الهاتف، ووقت المُرْسَل إليه، وتوفر نفقات التقاء المرسل بالمرسل إليه؟.

●

هاتوا نستبدل المجاملات المتكلفة الفارغة لأهل الفقيد، التي تكلفنا وتكلفهم الكثير من التعب والضيق، بخدمات فعّالة لهم أو للآخرين، لا تكلفنا أو تكلفهم إلا القليل القليل، وقتاً وتعباً؟.

مثلاً... أنا... حتى استطعت أن أقول لابن الفقيد «البقية في حياتك» دفعت، بالإضافة إلى تعبي ومرضي وتعطيلي لاشغال الناس، ما يقارب المائتيْ ليرة نقداً وعداً... وهذا يساوي ثلث راتبي الشهري إن لم يكن نصفه.

فإذا تذكرنا أن الوف المعزّين الذين فعلوا فعلي، دفعوا مثل ما دفعت،

تتضح لنا الخسائر المادية الباهظة، التي تبتلعها التقاليد الجوفاء...

وإذا تذكرنا أن أهل الفقيد، لم يكونوا أقل عذاباً وتعباً وانفاقاً من المعزّين، كل المعزّين، اتضحت لنا بجلاء، ضريبة التقاليد، التي يتكبدها الناس... كل الناس...

●

لماذا لا ننشيء بهذه الأموال المهدورة، مَبَرَّةً أو مَيْتَماً مثلاً، أو أي مشروع خيري، ينفع الأحياء، ويستنزل الرحمات، على أرواح المنتقلين إلى جوار ربهم؟.

لو راجعنا كتب السماء، كلها، لوجدناها توصي، وتلح في الوصية، بضرورة التواضع، في لحظات رحيل الإنسان لمواجهة ربه.

لو راجعنا كتب السماء، كلها، لوجدناها تشجب المكابرة والغطرسة في اساليب الحياة...

فكيف لا تكون في مراسم الموت، أكثر شجباً للمكابرة والغطرسة؟. ويؤكد هذه الحقيقة العبارة الدينية التالية: «سبحان من قهر عباده بالموت».

●

كثيرون كثيرون، هم العباقرة الذين تواضعوا حتى بعد الموت... الأنبياء، الذين قدّست الناس، التراب الذي داسته أقدامهم، لم يعرف لهم قبور برزت حصاة منها، فوق سطح الأرض...

شارل ديغول... أبو فرنسا الحرة، مؤسس فرنسا الحديثة، وأحد أبرز الذين غيرّوا وجه التاريخ الحديث... شارل ديغول هذا، اوصى بأن لا يُشَيَّعَ

جثمانه إلى مثواه الأخير، غير حفنة من الأشخاص، جُلُّهم أولاده وذوو قرباه.

في بلدان العالم المتقدم... تقلصت كثيراً كثيراً هذه التقاليد، ووفرت على أهلها الكثير الكثير من الجهد والوقت والمال... والذي توفر، وُظِّفَ التوظيف المناسب، خيراً من أجل الحياة، ووسائلَ لتطور الحياة...

أنا على أتمّ يقين، أننا سنصل في النهاية، إلى حيث وصلت بلدان العالم المتقدم... أنما ما يعزّ عليّ حقاً، أن نتأخر كثيراً، قبل أن نصل...

٢٣ ـ عش الدبابير

حديث عشّ الدبابير لقطتان: واحدة محلية، والثانية أجنبية...

ونذهب مباشرة إلى اللقطة الأولى:

الزمان: هذه الأيام، والمكان: بيت يقع على ناصية شارع من شوارع بيروت... آكْشِنْ لقد بدأ العرض:

●

تقبرُني يا ماما تقبرني!... ماذا ألمّ بك؟. ماذا حدث؟. بداية اعراض تسمّم؟. طبعاً... هذا مفهوم ومتوقع... من يتنفس دخان النفايات المحروقة، لا بدّ أن يصاب بالتسمم... التلفون!... هاتوا لي التلفون.

ـ آلو آلو... دكتور... ادركني يا دكتور، ارجوك، اقصد أدرك ولدي... ولدي مهدد بالتسمم... بالإختناق... نعم نعم بدخان النفايات المحروقة... قل لي ارشدني يا دكتور... ماذا أفعل؟. حسناً... نحن بالإنتظار... اسرع ارجوك...

هه... مَنْ يا ربي؟. مَنْ يستطيع إفهام هؤلاء الجهلة، أن حرق النفايات مُسَمِّمٌ تماماً مثل تركها... وأن الحالة الأولى ربما اسرع ضرراً...

●

آلو آلو... مسؤول البلدية؟. النجدة يا مسؤول البلدية... النجدة... ماذا حدث؟. حدث أن هرم النفايات تحت شباكنا، ارتفع منذ

أمس حتى اليوم طابقين. . . أجل أجل. . . فقد صارت أهرام النفايات تقدر احجامها بالطوابق، تماماً مثل المباني. . . ماذا؟ . تقول لماذا لا يتعاون أهل الحي ـ بالنظر لفوضى الحياة في الحرب ـ على إزالته من تحت شباكنا؟ . أعوذ بالله يا سعادة المسؤول، هرم نفاياتنا هرم مزمن، مستعصٍ عُضَال، لا يمكن إزالته. . . ماذا؟ . تريدني أن الطّف لهجتي؟. حسناً لنقل إنه هرم عريق، أصيل، تمتد جذوره في التاريخ حتى تبلغ. . .

حسناً حسناً. سأكف على الهَذَر. . . وسأتكلم برصانة. . . نعم. . . ارشدني. . وجهني يا سعادة المسؤول. . . ماذا عليّ أن أعمل لإزالته؟ .

اطلب من الجيران أن يكفوا عن. . . لا لا مستحيل يا سعادة المسؤول. . . سكان حيّنا لطفاء وكرماء. . . لا يمكن أن ينسونا ولا ليلة. . . ولذلك فهم يخصوننا كل ليلة، بما لا يقل عن مدماك في بناء الهرم. . . وهم من فرط أخلاصهم لنا، لا يدعون نفاية واحدة تُلقى في مزابل بعيدة، بل يحملونها بكل اخلاص ووقار إلى زاروبنا. . . نعم. . . خيراتنا لنا. . . وليس لغيرنا. . .

●

منذ عشرة أيام، تسلل فاعل خير تحت جنح الظلام. . تسلل والناس نيام، إلى مكب النفايات، واشعل فيه النار. . .

وحق محبتي لك يا صديقي. . . منذ عشرة أيام وحتى اليوم، وسماء بيتنا ملبدة بالغيوم، واعتقد جازماً بأن هذه الغيوم بدأت تمطر علينا، ضيقاً في التنفس، ووجعاً في الرأس، ولعياناً في النفس. . .

صبرنا يوماً، يومين، ثلاثة. . . ماعدنا نستطيع الإحتمال. . . استنفرنا اسرتنا كلها بشيبها وشبابها وولدانها، وهاجمنا جهنم، المتأججة بألف تلوث

وتلوث. . . ورحنا نطفئها بالعصيّ تارة، وبالماء طوراً، وبالرمل اخرى. . .

اطفأنا قسماً لكن الأقسام الأخرى لم تبلغها جهودنا المستميتة. . . .

فما العمل يا سعادة المسؤول؟. ما العمل، انقذونا. ماذا؟. تسأل عن طلباتي؟. ألا تعرفها؟.

إنها بسيطة. . . أزيلوا المزبل أو اطفئوه. . .

أنت تضحك يا أفندي؟. ولماذا تضحك بحق السماء؟. هاه. . . إطفاء الزبالة ليس من اختصاصك؟. وهل صار لإطفاء الزبالة اختصاص؟.

أنا لا أتهكم يا حضرة الأفندي. . . إحراق الزبالة يضايقنا. . . يهدد صحتنا وحياتنا بجسيم الأخطار. . . ماذا؟. لستم متفرغين لهكذا سخافات؟. هذه سخافات؟. مشغولون انتم بقضايا أهم؟. ما هي هذه القضايا؟. هاه. . . صحيح نسيت أنني بذلك أتدخل فيما لا يعنيني. . . حقاً. . . الأمر يعني انفي ورئتيَّ فقط ولا يعنيني. . . وداعاً. . . .

هناك قضاياً أهم. . . زوجتي وأولادي وأنا. . . لسنا مهمين. . . ما أرخصك يا إنسان. . . في بلدي. . . وفي الزمان الرديء!!. .

ستوب!. . . انتهت اللقطة الأولى. . . وإليكم. . . اللقطة الثانية العالمية الأجنبية. . .

●

الزمان: أواخر القرن العشرين. . .

المكان: بيت، مقابل فندق السواح الذي أنزل فيه أنا وزوجتي، في بلدٍ راقٍ من البلدان الأجنبية. . .

أول الحدث: زعيق سيارة النجدة يقترب. . .

نجّنا يا رب. . . تُرى ماذا حدث؟. بوليس النجدة قادم. . . إنه يقترب من ذلك البيت المواجه لفندقنا. . .

سكان الحي يتجمعون حول سيارة النجدة. . . رجال البوليس يطلبون من السكان أن يدخلوا بيوتهم، ويقفلوها على أنفسهم، أبواباً ونوافذ. . . يا إلهي!. خطر كبير داهم. . .

ارتفع السلم الآلي من السيارة، واتجه صوب أعلى نافذة البيت.. رجال البوليس. . غطوا وجوههم بالأقنعة الواقية. . . حصّنوا أيديهم بقفازات جلدية. . .

أحد رجال الشرطة رشّ مبيداً للحشرات نحو زاوية النافذة. . . والآن يمد يده إلى تلك الزاوية، وينتزع من تجويف فيها، شيئاً بحجم قبضة اليد. . . نزل السلم، وأُنزل السلم. . . تجمع الرجال في سيارتهم من جديد، وودعوا الناس بتلويح من أيديهم، بينما نادى الضابط الناس عبر مكبر الصوت، أن عودوا إلى حياتكم العادية، فقد زال ما كان ينغصّها. . . وابتعدت السيارة عن المكان وكأن شيئاً لم يكن. . .

عاد الناس إلى حياتهم العادية، ضاحكين شاكرين. . .

●

زوجتي وأنا، دُخْنا من التفكير، فيما عساه أن يكون، هذا الشيء، الذي نُزع من زاوية النافذة، بعد أن نزع من نفوس الناس طمأنينتها، ومن رجال الشرطة راحة ضميرهم، فهبّوا يحسمون امره.

حب الإستطلاع اشتعلت ناره في نفسي، فقلت لزوجتي: لن اهدأ قبل أن أعرف ما هو ذلك الشيء العجيب. . . تركت غرفتي في الفندق، وهُرِعت

على عجل، إلى ذلك البيت، استطلع من أصحابه، أخبار عملية الإنقاذ الطويلة العريضة. . فحكت لي صاحبة البيت الحكاية. . .

●

الدبابير يا عزيزتي، (احبوا) أن يبنوا عشهم، ويتزوجوا وينجبوا بثبات ونبات، في تجويف عند زاوية شباكنا. . . في الغرفة التي شبّاكها ذاك الشباك، تعيش ابنتنا... الدبابير (شغلوا) بالها. . . أخافوها. . . والخوف سبب لها القلق. . . والقلق يمكن أن يؤثّر، سلباً، في شخصيتها وتحصيلها الدراسي. . . لذلك كان على رجال الأمن، المسؤولين، عن أمن المواطنين، سواءً صغرت منغِّصات هذا الأمن أم كبرت، أن يتحركوا فوراً، تماماً كما يتحركون لحسم أخطار كبرى، كالمخدرات، والقتل، والسرقة، وأن يزيلوا الخطر أو الإزعاج عن سكان ذاك البيت، وعن المارة قربه في الشارع. . .

●

انتهت اللقطة الثانية، وقبل أن أتوقف عن الكلام. . . دعوني أطلق زفرة ترمز إلى الحسرة. . . ومع الزفرة سؤال:

لماذا تكون بضعة دبابير، في مكان. . . قضية تحرّك النجدة، ولا تكون أهرام مزارع الجراثيم القاتلة، تحت نوافذ الأطفال، في مكان آخر، إلاّ سخافة لا تستحق رمشة عين؟.

ما الجواب على سؤالي يا ناس؟.

الجواب: إنسان عش الدبابير، مصنوع من ذهب. . وإنسان أهرام مزارع الجراثيم القاتلة، مصنوع من فخار. . . هذه هي الحكاية كلها. . و. . سلام مصنوع من ذهب. . على القراء الأبرار الأخيار!!.

٢٤ ـ حلّاق

ـ الكبرياء لله... يا عبد الله!... صارت الساعة العاشرة، وأنت لمّا تفتح صالون الحلاقة...

ـ حسناً... لم أفتح... فما الذي حدث؟.

ـ حدث... حدث... أن سبعة رؤوس... أصبحت شعورها قابلة للتجديل من فرط ماهي طويلة... قصدك أصحابها السبعة، ليقصوها... فوجدوا الصالون مقفلاً... وقفوا واجمين حائرين... ثم هزّوا رؤوسهم فهزت معها شعورهم... ثم رحلوا ممتعضين...

ـ وإذا رحلوا يا عم... فهل رحلت الدنيا معهم؟.

ـ الدنيا لم ترحل معهم يا عبد الله... بل الذي رحل رزقك والله... ربحك، كسبك.

ـ الرزق رحل؟. كيف؟..

ـ لا تعرف كيف؟. حسناً... اشرح لك، ولندع الأرقام تتكلم... سبعة رؤوس شَعْرَانية... اجرة حلاقة الواحد منها عشر ليرات نقداً وعداً... اضرب السبعة في عشرة... حاصل الضرب سبعون ليرة... وهذا يعني أن سبعين ليرة ثمينة، رأيتها بأم عيني هذا الصباح، هاربة من أمام صالونك، وكل من السبعين، تسابق أختها في الهرب...

ـ لماذا؟. لماذا؟.

ـ لأن سيادتك كنت ما تزال تغط في نوم الضحى، أو كنت ماتزال تحتسي القهوة بهدوء واسترخاء... ولأن الرزق يا عبد الله، مهذّب مترفع عزيز، لا يدخل مكاناً إلا إذا فتحت له باب المكان...

ـ الرزق عزيز، ونومة الصباح هي أيضاً لدي عزيزة.

ـ أصحاب الملايين يا عبد الله افاقوا من زمان... اصحاب الشركات والمصارف مزروعون خلف مكاتبهم منذ ساعتين، ورؤوسهم مختفية وراء اعمدة الملفات المحيطة بها... أما أنت يا...

ـ اسمع... احفظ لسانك... لا أحد أحسن من أحد... أصحاب الشركات والبنوك وأنا، سواسية في الإنسانية...

ـ على رأسي كلامك يا عبد الله... أنا لا أقول إن المليونير أفضل منك... بل أقول إنه أشطر منك وأوعى، فبالرغم من أنه لا يحتاج القرش وأنت تحتاجه، فقد سعى هو وراءه، وأنت عنه تقاعست... صاحب الشركة ليس انفع منك للوطن... لكنه سبقك إلى خدمة الوطن... فاستحق الإحترام... وهو بكّر لقضاء مصالح المواطنين، وانت جمدّتها ساعتين، فاستحققت... فاستحققت...

ـ قلت لك اياك والسباب... هه؟.

ـ حاشا أن أسب أو أشتم.

ـ وإياك أن تساوي بين الصالون وبين البنك أو الشركة.

ـ ولماذا لا أساوي بينهما، يا عبد ربك؟.

ـ هذا مثل ذاك وتلك؟.

ـ نعم هذا مثل ذاك وتلك... أُنشيء كل منها ليخدم مصالح الناس... وطالما أنك تدّعي «العصرنة» يا عبد الله، يجدر بك أن تؤمن بالنهار المبرمج...

●

ـ النهار المبرمج؟.

ـ نعم...

ـ ماذا يعني ذلك؟.

ـ يعني... يعني أن كل ساعة في النهار، لها عمل يجب أن يعبِّيء فراغها...

ـ صحيح.

ـ وكل فتًى قصدك يا عبد الله ليقص شعره ولم يجدك، فقد ضيّعت عليه ساعةً من نهاره، كان برنامجها قص شعر. وبالتالي تكون قد اربكت بذلك برنامج يومه التالي.

ـ ما علاقة يومه التالي بما حدث اليوم.

ـ غداً سوف ينتزع ذلك الفتى، من يومه التالي، ساعة أخرى، يخصصها لقص شعره، بدل الساعة الضائعة يوم أمْسِه... هذا إذا افترضنا متفاءلين، إنه سيجدك فاتحاً صالونك في اليوم التالي.

●

ـ يا سيدي دعني من برامجك هذه... وليبحث فتاك عن حلاق غيري...

ـ عفواً. . . اسمح لي بأن أناقضك في هذا وأقول. . . لا لن يذهب إلى غيرك. . . هذا الفتى تعوّد الحلاقة عندك. . . ولن يحلق إلا عندك. . .

ـ وأنا أقول لن أحلق له. . . أنا حر. . .

ـ وأنا أقول أيضاً بأنك في هذا لست حراً. . . أمام الأخلاق واللياقة الإجتماعية على الأقل. . . وأمام القانون في النهاية. . .

ـ غريب. . . أنت تجبرني على فعل ما لا اريد. . . أنت تتدخل في حقوقي المدنية. . . في حرية رأيي وقولي وفعلي. . .

ـ رويدك يا عبد الله رويدك. . . أشرح لك. . . وبعدها تقتنع أو لا تقتنع. . .

●

ـ تفضل. . . اشرح لي. . .

ـ ألا تعلم يا عبد الله أن هناك عقداً (أوكونترا) بينك وبين زبونك؟.

ـ عقد بيني وبين زبوني؟. الله!. . . يا للفكاهة غير المضحكة!!. بيني وبين زبوني عقد؟.

ـ ويشترط أول بنود هذا العقد عليك. . . أن تفتح صالون حلاقة لتحلق رأس ذلك الزبون، لقاء أجر محدد، يدفعه لك، قبل الحلاقة أو بعدها. . .

ـ يا إلٰهي!. . . أين هو هذا العقد؟. . أنا لم أره قط يا رجل.

ـ ولن تراه أبداً. . . اطمئنك. . . لأنه غير مكتوب. . .

ـ أنا لا أعترف إلا بالمكتوب. . . بالحسي من الإتفاقات.

ـ لكنك معترف به اجتماعياً يا صاحبي. . .

ـ اجتماعياً؟.

ـ نعم... ألست عضواً عاملاً في الأسرة الإجتماعية؟. قل لي بحق لحيتك الاشعرية هذه...

ـ دع لحيتي...

ـ لن ادعها قبل أن تجيب على سؤالي.

ـ حسناً... أنا عضو عامل في الأسرة الإجتماعية...

ـ كل عضو عامل في هذه الأسرة، مطلوب منه الإلتزام بواجباته... وواجباتك أنت... أن تحلق لزبائنك، وأن تحلق لهم، في الأوقات المناسبة، لهم، وليس في الأوقات التي تتلاءم مع نومك الضحى، أو الظهر، أو العصر...

●

ـ يا أخي دع نومي جانباً... هل كلّفك أحد بتنظيم نومي ويقظتي؟.

ـ عفواً أنا لا اناقشك كي احرمك من نوم الصباح... لكن نوم الصباح ينتهي في السادسة...

ـ بل قل الخامسة أو الرابعة...

ـ أقول السادسة لا قبلها ولا بعدها... أتعلم لماذا؟.

ـ لماذا؟.

ـ لأن السادسة، محلياً وعالمياً، هي ساعة نهوض العامل، الصانع، المهني، الحرفي، من نومه...

ـ حرفي؟.

ـ نعم... أنت حرفي مهني صانع عامل... أنا لا يمكنني تصور شمس الصباح تشرق، إلا من وراء سواعد العمال والحرفيين المهرة، الغاطسة في خضم العمل النشيط المنتج. لا استطيع أن أتصور الصباح الفضي قد خلق إلا لك، ولأمثالك من الناشطين في خدمة الناس...

●

من زمان يا عبد الله... حين كنت صغيراً، أذكر أن أبي كان يمر كل يوم إلى صالون الحلاقة، لحلاقة ذقنه، قبل الذهاب إلى مكتب وظيفته... وهذا يعني أن حَلاَّقَهُ يومذاك، كان يفتح صالونه قبل السابعة صباحاً، أو حتى قبل السادسة... فماذا حدث اليوم، حتى تغيّر ذاك النظام؟.

ـ ماذا حدث؟. قل: تقدمنا... تطورنا...

ـ هه... لا والله!!. أنا لا أرى أن التقدم أو التطور، في نوم العناصر الفعالة في المجتمع، حتى الساعة العاشرة... وحتى أنني اجرؤ فأقول: إن النوم حتى العاشرة أو الحادية عشرة، دليل على خمول المجتمع، على تقهقره، على تخلفه... وهو والله ليس إلا بدعة الحروب الأهلية العبثية، وآفة من أبشع آفات الحياة الإجتماعية... إنها حب كسب الكثير، بالقليل من التعب... أو الكسب بلا تعب.

●

ـ قل لي يا هذا... أنحن وحدنا ننام الضحى؟.

ـ في الحقيقة... عشت زماناً في بعض المدن الأوروبية والأمريكية... التي هي المثل المحتذى للتقدم والرقي... عجلة الإنتاج ـ صدقني ـ تدور في جميع المرافق، من الفجر حتى المساء... من الليل إلى الليل.

ـ بدون استراحة؟.

ـ بلى... يتخلل هذا الدوام، حسب نوعية النشاط والإنتاج، فترة أو فترتان، للراحة والطعام والإسترخاء... لكن دوامك يا عبد الله...

ـ عدنا إلى دوام عبد الله...

ـ أقول: لكن دوامك يا عبد لله، يبدأ في ما بعد العاشرة، ويتوقف في الواحدة... ثم يستأنف في الرابعة، ليقفل الصالون نهائياً في السادسة. خمس ساعات فقط لا غير... يتخللها طبعاً شرب الشاي والقهوة والسيجارة، وحكايات الحلاقين للزبائن، والتي لا تكون عادة موفقة أو ممتعة... وبناء على هذا... على من يهمه قص شعره من الزبائن الكرام، أن يحصل قبل يوم على الأقل من قص شعره، على روزنامة اليوم التالي، ليتم تنسيق التعامل البنّاء المنتج، بين الحلاّق والمحلوق.

●

ـ ارجوك... لقد زدتها حقاً... زدتها حتى صارت ثخينة سمينة... كف عن الدعابة والإستهزاء...

ـ معذرة يا صاحبي... لقد اغضبتك... حسناً سأمتنع عن الدعابة والإستهزاء... لكنني سأكمل حديثي.

ـ بلياقة واحترام.

ـ بلياقة واحترام... يا سيدي يا عبد الله... بعد كم شهر، سوف تستقبل ابنك الثالث، حماه الله، وحمى من هما قبله!. أليس كذلك؟.

ـ نعم نعم... ابني الثالث قادم بإذن الله.

فإذا اضفنا الثلاثة، رعاهم المولى، إليك وإلى أم البنين، لكان العدد خمسة.

ـ خمسة... في عيون الشيطان...

ـ وذلك يعني أن خمسة أفواه، أو خمسة بطون، في ارتفاع الأسعار الفاحش هذه الأيام، تحتاج إلى بيت مال... فماذا أعددت يا عبد الله للخمسة، أو للثلاثة المحروسين الذين يكبرون، وتكبر معهم نفقاتهم وتتعاظم... أنت تعرف أنهم سيحتاجون إلى أقساط مدارس، وكتب، وثياب، وطبابة، وترفيه، ولعب... و...

ـ كفى!.. كفى ثرثرة...

ـ وماذا وفرت لهم للمرحلة الجامعية... حين يبدأون دراسة الطب، والهندسة، والحقوق، أو دراسة اختصاصات التكنولوجيا الحديثة.

ـ الأشياء يا رجل مرهونة بأوقاتها... تتحدث عن المستقبل والمستقبل عنك بعيد؟.

ـ بصيرتك عمياء يا عبد الله... أنت لا ترى أبعد من أنفك...

ـ عدنا إلى التطاول على الكرامة.

ـ الإنسان العصري يخطط لعشرات السنين القادمة... فإذا لم يفعل باغته الغد بأعبائه، مباغتة السيل العرم، الذي يحمله ويُرْبكه، ويحطم كل ما حوله...

ـ يا أخي... ليعش أولادي غداً كما عشت أنا بالأمس...

ـ لا يا عبد الله... لن يكون أولادك حلاقين، على الأقل بالدرجة التي

أنت فيها من مهنتك... أولادك ليسوا لك، أولادك أبناء الحياة، كما قال جبران... والحياة، زمن رجولة أولادك، غير الحياة، زمن رجولتك... كل جيل يحب أن يتقدم على جيل سبقه... فإذا قلّد الجيل اللاحق السابق... راوحت الحياة مكانها... ومراوحة الحياة مكانها، تعني ليس الجمود فحسب... بل التخلف.

●

ـ أما شبعت توبيخاً لي ولوماً يا رجل...

ـ بقيت كلمة واحدة.

ـ قلها واغرب عن وجهي...

ـ وطننا الجريح... وطننا الممزق... وطننا الذي اجتاز أو مازال يجتاز محنة ليست كالمحن... هذا الوطن يحتاج إلى ايدٍ نشطة... يحتاج إلى كل يد ماهرة تبلسم جراحه، تدعم نهوضه من تحت الرماد... تساند اقتصاده المتهالك...

يدك يا عبد الله هي اليد المطلوبة... تماما كما هي مطلوبة يد الفلاح، والمثقف، والموظف والحداد والنجار...

يدك يحتاجها وطنك واسرتك، وحين تمد يدك إليهما تشعر بالسعادة، حتى ولو تعبت يدك وكَلّتْ...

من قال لنا أن السعادة في الخمول والجمود؟. والله لا أرى السعادة إلا في الحركة والإنتاج... والله لا أراها، إلا في لمعان السواعد المتعرّقة بالجهد الجهيد.

●

ـ والآن . . . أما تعبت من الكلام؟ .

ـ تعبت والله ! . . ومن كثرة ما تكلمت أشعر أن شعر رأسي طال، وسوف اقصه صباح غد بإذن الله . .

ـ وبإذن الله، سوف افتح الصالون غداً الساعة . . .

ـ الساعة السابعة والنصف صباحاً .

ـ السابعة والنصف يا ظالم؟ . حرام . .

ـ وإذا وجدت الصالون مقفلاً هذه الساعة، سأكتب بالطبشور على بابه ما يلي :

«بما أن صاحب الصالون كسول، ولا يؤدي واجباته المهنية على أتم وجه . . . فقد توفّاه الله، وبذلك أُقفل صالونه إلى الأبد» .

ـ لعنة الله على شيطانك يا هذا . . . ستجدني غداً بانتظارك الساعة السابعة والنصف، والمقص والمشط في يدي .

ـ لتقص شعري؟ .

ـ واقص إذا أحببت، رأسك من العنق .

٢٥ ـ هليكوبتر

ـ زيزو... ابتعد عني ولا تكلمني... لا أنت زوجي ولا أنت حبيبي. أنا حبيبة قلبك؟. هه... قديمة هذه، ونعرفها، وحفظناها عن ظهر قلب، هات غيرها...

اسمع، لا كلمة ولا كلمتين... إذا أردت الوفاق بيننا أنا حاضرة... شرط أن تظهر حسن نية وتنفذ رغبتي.

لا تعرف رغبتي؟. غريب هذا الرجل!... هل أصيب بالطرش يا ربي؟!. أو هل أنا أتكلم في الطاحون؟. منذ الصباح وأنا أصرخ وأصيح:

ـ يا زوجي يا زيزو العزيزو... رغبتي وامنيتي وحلمي... شيء واحد ليس له ثان... وهو أن تشتري لي طائرة هليكوبتر...

زيزو... مالك «تشردقت» بكلماتك؟. نعم نعم يا سيدي... أنت زوجي زيزو أبو الخدود، مطلوب منك، حالاً وسريعاً أن تشتري لحرمك المصون، طائرة هليكوبتر...

من أين تأتي بثمنها؟. هذا شغلك لا شغلي... أنت حر... دبّر الثمن من سابع أرض أو سابع سماء...

يا زيزو أفندي إن لزوجتك عليك حقوقاً... أم هل تحسبون أيها الرجال، أنكم تتزوجون بنات الناس، لتهملوا طلباتهم وأوامرهن،

وتـدخلـوهـن نـادي المحـروميـن؟. (مستـدركـة) عفـواً. . نـادي المحرومات؟. . .

م م م. . . تسألني ما حاجتي إلى الهليكوبتر. . . (تقهقه) يا لهذا الرجل الطـريف الظـريف!!. ما حـاجتي إلى الهليكـوبتـر هـه؟. أنـت لا تعـرف الجواب؟. ما أسهله يا رجل. . . اسمع. . .

●

لو كان عندي هليكوبتر، يا ذكي، لكنت أقفز بها إلى الحمراء أو إلى جونيه. . . فاتبضع في ساعة زمان وأعود إلى البيت. . .

لو كان عندي هليكوبتر لكنت أزور صواحبي في رأس بيروت، وفي الزلقة والدكوانة وخلدة، ونسهر سوياً في الكازينو في برمانا، ثم نعود إلى البيت مرتاحين مبسوطين. . . أقصد: مرتاحات مبسوطات تات تات. ألا قل لي. متى يزيل علماء اللغة العربية، هذه الفوارق بين المذكر السالم والمؤنث السالم علماً بأن السيد مذكر والسيدة مؤنث، متساويان في السلامة. . . سلمك الله وسلمني؟.

●

نعود إلى خرافنا يا زيزو العزيزو. . .

مالك تضحك هذه الضحكة، المائلة إلى اليمين، بالله عليك؟. هاه. . . تضحك من هذه المشاوير الجوية؟. وهل المشاوير الجوية فكاهة مضحكة يا شاطر؟.

هاه. . . تسألني لماذا لا تكون مشاويرنا برية؟. جاء دوري الآن لأضحك وأقول: حلوة والله. . . حكى بدري فانشرح صدري. . .

صحيح... لماذا لا تكون مشاويرنا برية لا جوية. الجواب: لأنه لم يعد لنا في البر طريق. نسير عليها يا محروس امرأتك...

بالسيارة تقول؟. وأين تسير هذه السيارة؟. ألا تعرف أن أوتوسترادادتنا صارت شوارع قديمة... وشوارعنا القديمة صارت زواريب؟.

لو ركبت سيارتك، واتجهت صوب الزلقا... فِلْتر السير أو مصفاة السير في البربير، سوف تعصرك عصراً، وما يتبقى من عصارتك، يتولاها فلتر المتحف، ثم فلتر الجسر الواطي، ومستديرة الحايك، ومستديرة الصالومي، ثم بعد ذلك، فلترات أو مصافي كورنيش الجديدة، وحين تبلغ الزلقا يا عزيزي، تتفقد قلبك وقلبي، فتجدهما «بَخْ» ذائبين...

●

الآن... إذا طاب لك أن تعزف عن مشوار الزلقا، وتستبدله بمشوار من المزرعة إلى الحمرا، المشوار القريب الهيّن الليّن... فإن فلتر «برج أبو حيدر» سيكون لك بالمرصاد، ثم فلتر ثكنة الحلو، ثم فيلتر فُردان، وجدار السير المسدود في جميع منافذ البرستول...

وإذا وفقك الله.. واخترقت جدار البريستول، فستجد نفسك محبوساً بازدحام نزلة السارولا، ثم عالقاً في تأزّم نزلة البيكاديللي...

وإذا وفقك الله أكثر فأكثر، ووصلت إلى الحمرا، فإن الإحتمال وارد أن تنزل من سيارتك، وتشاهد فيلماً سينمائياً طويلاً عريضاً، وتعود لتجد سيارتك ما زالت محلها، حبيسة السير الجامد المجمد...

●

زيزو... مالك تتمتم بكلام غير مفهوم؟. أنت لا تستمع إليّ؟.

حسناً. . . هات اقتراحك البديل. . . ما هو اقتراحك؟.

بدل أن نتكبد أموالاً طائلة لنشتري الهليكوبتر، لماذا لا نبيع سيارتنا فنكسب ثمنها، وعندها نتنقّل مرتاحين، من مكان إلى مكان، مشياً على أقدامنا؟.

يا للإقتراح الفكاهة! . أتعلم يا فيلسوف عصرك؟. أنا لا أصدق أن عبقرية زوجي يمكن أن تتفجرّ عن هكذا اقتراح. . .

ماذا؟. مشياً على الأقدام هه؟. قل لي بحق شاربيك. . . هل هناك مكان فارغ في شوارع بيروت توضع فيه قدم، لتقف أو لتسير؟. الرصيف الذي أنشأوه من زمان لتسير عليه الناس، صار اليوم مواقف سيارات. . .

لا تتعب يا حبيبي لا تتعب. . . المشكلة لا تحلها إلا الهليكوبتر.

●

ماذا؟. لنحاول حل مشكلة السير حلاً سلمياً بدون طائرات ولا دبابات؟. حسناً. . .تُكْرَم عينُك. . . سأحل لك مشكلة السير حلاً سلمياً. . . اسمع يا سيدي. . .

مشكلة السير كانت موجودة قبل الخامسة والسبعين المشؤومة. . . بعد الخامسة والسبعين زادت بدل أن تنقص. لماذا؟. المناطق انضغطت إلى بعضها البعض، بفعل مناطق فرّغتها الحرب من السكان. . . رصيد المناطق الفارغة من السيارات، أندسّ في المناطق الآمنة نسبياً، فضغطها ضغطاً قوياً بالسكان والسيارات. . .

حضرة مواطننا الذي هو من هواة شراء السيارات، مستعد ألاّ يأكل ولا يشرب، ولا يلبس، لكي يحصل على سيارة. . . وإذا لم يجد موقفاً لسيارته

أو سياراته في الشارع، فهو مستعد لايقافها على السطح، وعلى شرفات منزله . . .

لهذا السبب لم تعد الشوارع ولا الأرصفة ولا الأزقة تتسع للسيارات . . .

●

الظاهرة العجيبة التي نشاهدها في أزمات السير، أن السيارات كثيرة وركابها قليلون . . .

نعم . . . هذا الذي يسمى البذخ في حركة النقل . . «البعزقة» في السير . هذه الظاهرة لا تجدها إلا في لبنان .

أعتقد أن معدل ركاب السيارة في لبنان، هو اثنان إلى ثلاثة اشخاص للسيارة الواحدة، علماً بأن السيارة تتسع لخمسة ركاب .

والذي يزيد المشكلة تعقيداً . . . أولئك الذوات من عُلِّيَّة القوم، الذين هوايتهم اقتناء سيارات عرضها عرض الاوتوستراد، وطولها نصف كيلومتر . . .

هؤلاء يسدون الشوارع بسياراتهم المُكابِرة المُسْتَكْبِرة، وذلك طبعاً في عزّ ازدحام السير . . . ويا شوارع بيروت احتملي أن كنت تحتملين!! .

لكل هذه الأسباب . . . لو كانت مدام أبو الخدود . . . يعني زوجتك يا زيزو . . . يعني أنا . . . لو كانت مسؤولة عن السير، لنظمت ضبط مخالفة من العيار الثقيل، في حق كل سيارة تقلّ أقل من ثلاثة ركاب . . .

وإذا اتهمني أحد بتقييد حرية المواطن . . . أقول له: يا استاذ اسمح لنا . . . حرية المواطن هذا، تحرق حرية جميع المواطنين، ومصالحهم،

واتصالاتهم، في زمن الإتصالات على كل صعيد.

بهذا التدبير، ينتعش سائق السيارة العمومية، الذي يجب أن ينتعش، فتنتعش السياحة والسفر في بلد السياحة والسفر... هذا مع أننا لا ننسى لهذا السائق وقفته المورروبة في عرض الشارع، واقتحامه مفارق الطرق الخطرة، بسرعة أو بسياقة فوضوية...

وإذا زاد اعتمادنا السيارة العمومية في تنقلنا، تأكد يا عزيزي، أن جزءاً كبيراً من مشكلة السير يزول...

أما المترف الصلف، الذي لا يرضى باعتماد سيارة الأجرة، حتى لا يلوث ثيابه المخملية، فليلبس ثياب القتال، ثياب الجنود، كلما أراد الإنتقال أو التنزه...

زيزو العزيزو... وإلى أن تتحقق مطالبي العادلة، في حل مشكلة السير... سوف اؤجل طلب شراء الهليكوبتر...

انصرف يا زيزو... عفونا عنك واطلقنا سراحك...

٢٦ ـ أخذوا مني الشمس

النجدة يا أهل النجدة!!. ردوا عني الضيم!!. ادفعوا عني الضرر!!.

أخذوا مني الشمس!!.

والادهى والأمرّ... أنهم انتزعوها مني شتاءً وتركوها لي صيفاً...

صارت حياتي: في الشتاء (دَنِيق)، وفي الصيف حريق...

ماذا؟. تحسبونني أضعت عقلي؟. لا والله!!. إنني ما زلت عاقلاً... وإليكم الدليل... أو الحكاية...

●

نمهد للحكاية بالقول: حين خلق الله الأرض، جعل لها دورتين واحدة حول نفسها، وواحدة حول الشمس... والحكمة من ذلك، في رأيي على الأقل، أن تصل اشعة الشمس إلى كل بقعة على سطح الأرض، فتشيع فيها الدفء، لتصنع فيها، بالتالي، بإذن ربها، الحياة...

إذن... حَقٌّ لكل امريء أن يكون له حصته من الشمس... وكل من يحجب هذا الحق عنه، ظالم وسارق وغاصب...

وأنا، كواحد من سكان كوكب الأرض، لي حق في أن يكون لي حصة في الشمس، وخاصة في الشتاء، حين تكون القعدة في شمس شرفتنا، تساوي مسرات الدنيا كلها...

يا سادتي!.. ظهر أمس، ودعت آخر شعاع شمس، يطل على أقصى بقعة من بقاع شرفة بيتنا... لماذا؟.

بكل بساطة، أصحاب قطعة الأرض المتاخمة لبيتنا، عمّروا في القطعة تلك، ناطحة سحاب... ووضعوا الحدّ على الحد... لدرجة أنهم قطعوا الهواء عني، بالإضافة إلى الشمس...

ماذا تقولون؟. لماذا سكنت أنا هذا البيت بالذات؟. ولماذا حشرت بنفسي في ظل مبنى الجيران؟. حسناً... إليكم الجواب...

●

(بزفرة حنين) منذ خمسة وأربعين عاماً تقريباً، أو في أواسط هذا القرن، وجُلُّ الناس في بيروت بسطاء، يسكنون الدهاليز والأكواخ، المسماة زوراً وبهتاناً، بيوتاً... قام أحد الجامعيين، الذي هو أنا، يفكر في تحسين وضعه المعيشي، ليس رفاهاً لنفسه واسرته فقط، بل ليكون نموذجاً لغيره من الناس، يحفزهم إلى الإنتفاض على التخلف، والإنطلاق في مسيرة التقدم... تماماً كما يجب أن يكون المثقف في محيطه ومجتمعه...

قال هذا المثقف لنفسه: كم اتمنى أن أسكن بيتاً، بعيداً عن الضجيج، سابحاً في الخضرة، ومنتعشاً بنقيّ الهواء، محضوناً بشمس دافئة حنون... لكي أُنشيء في هذا البيت الجميل، أسرة كريمة، تتذوق جمال الطبيعة، وتتلذذ بالسكون، وتتمتع بصفاء التفكير وهدوء الأعصاب...

من أجل هذا الهدف يا سادة، بدأت مسيرة بحث مضنية... صدقوني إذا قلت لكم، إنني ذرعت شوارع على قدمي، لو وصّلتها ببعضها البعض، لأوصلتني إلى الصين...

وأخيراً اهتديت إلى البيت.. البيت الأمنية، البيت الحلم... ودفعت إيجاراً له غالياً... ثلث راتبي أو ما يقارب نصفه... وذاك في ذاك الزمن، بذل كبير...

لكن البذل يصغر ويهون، حين تجد البيت عند حسن الظن... مكشوفاً على كل الجهات الأربع... يستلم الشمس صباحاً طازجة من وراء جبل صنين، ويسلمها مساءً للبحر كتلة ارجوان ملتهب.

أما البيوت المتناثرة حوله بين الجنائن، لتؤنسه ولا تزعجه، فتقترب منه ولا تلتصق به... تناجيه بهمساتها، ولا تخدش سمعه بضجيجها...

عشنا في بيتنا ذاك سنوات، زرعنا خلالها فيه، ذكريات سعيدة حنونة... قد تكون اسعد ذكريات اسرتنا.

●

منذ سنوات خمس فقط... أكفهر الجو، وعبست الدنيا... سألنا: ماذا حدث؟. قيل لنا: المدنية وصلت حيّكم... المدنية؟.

نعم... وصلت ومعها الإزدهار العمراني... جُنَّ جنون أسعار الأرض... وسال لعاب الشارين التجار... وأطبق على بيتنا الحالم الوديع، سَدٌّ من الغرب يحاكي سور الصين العظيم... جعلنا نودّع شمس الأصيل، وعيوننا مغرورقة بالدموع...

لم تمضِ شهور، إلا وسدٌّ ثانٍ، ارتفع من ناحية الشرق، جعل صنّين العزيز على قلوبنا، يخرج نهائياً من حياتنا اليومية...

شكونا كثيراً وحكينا كثيراً... فلم تفد الشكوى ولا الحكي أفاد... أخيراً قلت:

يا رجل اسكت، حتى لا يتهموك بالرجعية والتخلف، أو يسموك عدو الحضارة وخصم التمدن.

يا رجل كن قنوعاً... الشمس مازالت تزورك من الجهة الجنوبية للبيت... وذاك ألف نعمة من الله...

آه يا سادة ثم آه... أمس كان عمال البناء يصبون بالإسمنت، السقف السابع من المبنى الجديد، الذي نَبَتَ، كالفطر سريعاً، على الحد الجنوبي لبيتنا السجين، والذي اغتال آخر شعاع شمس، يبلغ آخر نقطة على شرفة منزلنا...

ودخل بيتنا الحبيب، المجنيُّ عليه، العصر الجليدي الحديث، الذي لا شمس فيه ولا دفء ولا شعاع نور يبلغه، من شرق أو غرب أو جنوب.

أو تظنون يا سادة أن السوء توقف عند هذا الحد؟. لا... المبنى الذي أخذ مكتسباتنا، أعطانا مقابلها مساوئه وشوائبه...

هدوء بيتنا وسكينته، غاصا في عواء الستيريوهات، وعويل زمامير السيارات، وهدير مولدات الكهرباء ومحركات ضخّ الماء، وأخيراً فرقعات نقارات الصخور والاسمنت...

ويا اسرتي، هلمي بنا نفرّ... ففي الفرار السلامة والغنيمة...

●

آلو آلو... مكتب الشؤون العقارية؟. أنا فلان... والله اريد الإنتقال من بيتي... مواصفات البيت الذي اطلبه، ثلاث غرف نوم وصالون وغرفتا استقبال وغرفة طعام... وطبعاً يجب أن يكون فسيحاً مشمساً ومُهَوًّى... ماذا؟. تسأل عن رصيدي المالي؟. اطمئن يا سيدي... محسوبك موظف

قديم (متضاحكاً) وتستطيع أن تقول إني موظف كبير، وبكل تواضع راتبي محترم. . . ألف وثمانمائة ليرة في الشهر. . .

ارأيت؟. استطيع تغطية إيجار بيت جميل، كهذا البيت، اطمئن. . . وإنني. . ماذا؟. ماذا تقول؟. راتبي قليل. . .

و. . . و. . . وكم يجب عليّ أن ادفع للبيت الذي طلبته؟. (صارخاً) ماذا؟. ثلاثين الفاً؟.

لا لا. . . يبدو أنك يا حبّوب، لم تفهم طلبي جيداً. . . أنا يا عزيزي لا اريد شراء البيت، أريد استئجاره. . .

هـ. . . هـ. . . هذا هو الإيجار؟. ثلاثون الف ليرة إيجار البيت الذي طلبته؟.

يا للمصيبة!. . . هل تسمح بسؤال اضافي أيها السيد؟. كم ثمن البيت لو افترضنا أن انساناً تجرّأ على شرائه؟. ثلاثمائة ألف؟. أعوذ بالله!. . . يعني يعني صار الموظف (المحترم) مثلي، صار ممنوعاً عليه طيلة عمره، أن يحلم بامتلاك بيت مماثل؟. شكراً. . . شكراً يا أخي. . . اصرف النظر عن الموضوع. . . وداعاً. . .

أقفلت التلفون حزيناً يا سادة. . . انطويت على نفسي. . . جمدت جماد لوح من الثلج، في عصر الجليد. . .

●

قولوا لي بربكم. . . هل أنا مجنون، أم غريب عن العصر، وعن هذه الدنيا؟!. .

أريد الشمس. . نعم الشمس. . . حقي الإلهي. . . حقي الطبيعي. . .

ردوا لي الشمس إلى بيتي، تماماً كما تردون لي، ورقة المائة ليرة، إذا فقدت من جيبي وعثرتم عليها...

أريد محاكمة مَنْ اختلس الشمس من بيتي والهواء، تماماً كما تحاكمون من اختلس ورقة المائة ليرة من جيبي، إلا إذا كانت المائة ليرة، عندكم، اغلى من الشمس...

لا تقولوا: أنت تجد الشمس خارج بيتك، إن لم تجدها في بيتك، فأين المشكلة هنا؟.

فأجيبكم: في هذه الأيام... أيام التطور التكنولوجي والحياة العصرية، اين أعثر على الشمس؟. في المكتب المضاء بالكهرباء نهاراً، أم في المقهى، أم في الستيريو، أم في دور السينما... التي شرط تمدنها الأول، أن تكون غارقة في ظلام دامس، وفي أحسن الأحوال، مضاءة بقبس أحمر عليل.

يا سادة يا كرام... لماذا لا نشترع شرعة، اسمها شرعة ملكية الشمس، ولا بأس بشرعة مماثلة اسمها شرعة ملكية الهواء النقي... وشرعة ملكية جمال الطبيعة... وأن ندافع عن هذه الشرائع، دفاعنا عن الوطن والحياة... بالروح والدم؟!.

٢٧ ـ عكس السير

ارتفع في الشارع الضيق زمّور سيارة... فاعقبه زمامير في نغمة احتجاج... وانطلق صوت أحد السائقين...

ـ اعملوا معروفاً يا شباب (يا شبّان)... افتحوا السير... ارجعوا إلى الوراء...

الزمامير تتزايد، فيتزايد غضبُ «قبضايانا».

ـ أنتم لا ترجعون؟. من الذي سوف يرجع إذن؟.

ـ أنت!!.. أنا؟. لماذا يا أكحل العينين؟.

ـ لأنك مخالف اتجاه السير.

ـ أنا المخالف أم أنت؟.

ـ لا ادري؟.

ـ كنت تدري، فاصبحت لا تدري... حسناً... انظر بعينيك الكحلاوين. هناك... ما هذه؟.

ـ أنها أحدى إشارات السير.

ـ ماذا عليها؟. أليس عليها سهم طويل عريض يحدد وجهة السير.

ماذا يعني ذاك؟.

ـ يعني... يعني أنني أنا سائر باتجاه السير... وسيادتك سائر عكسه... والسائر عكس السير عليه أن يتراجع ليمرّ السائر في الاتجاه الصحيح... وبهذه الطريقة نكون قد نفذنا تعليمات إشارة السير... فهمت أم لم تفهم يا عزيزي؟.

ـ اسمع يا هذا... مَنْ يسأل عن هذه الإشارات هذه الأيام!.

ـ سأل أم لم يسأل هذه الإشارات لم توضع للزينة... عقول حكيمة قررتها... وايدٍ رحيمة نصبتها هنا لتنظيم المرور، لمنع الكوارث والحوادث عن الناس... وأنت واحد من هؤلاء الناس، هذه الإشارات جزء من القانون... قانون بلدك الذي وضع ليحميك ويحافظ عليك... لكنك طالما أنت لا تحفظ القانون فالقانون لن يحفظك... هيا ارجع إلى الوراء وافتح السير ليمرّ الناس، وإذا لم تفتح، فإن قبراً ما سيُفتح الآن...

●

بالرغم من بشاعة فتح القبر. فكلام لطّوف جميل، وتفكيره حكيم، وروحه التعاونية النبيلة، تتجسد في هذا الكلام... ولطّوف الذي سمعناه حتى الآن، حليف للقانون، وصديق للنظام، ومحامٍ عن العدل، لطّوف هذا في موقف سليم، يدخل زاروب القرواني باتجاه السير، ويقف طوداً شامخاً في وجه مَن يعاكس السير والنظام. والعدل والحق.

لذلك، لنهتف معاً: عاش لطّوف!. وحيّاه الله و... بيّاه!!...

ولكن!!... يمضي ذلك اليوم، ويأتي يوم آخر، و... تتغيرّ الأمور، وسبحان الذي يغيِّر ولا يتغيَّر...

●

الـزمـان: يـوم آخـر... والمكـان: زاروب القـروانـي ذاتـه... والموضوع: عرقلة سير في الزاروب، بسبب سيارة مخالفة، دخلت الزاروب بعكس وجهة السير، وبطل المخالفة، صدقوا أو لا تصدقوا، هو... لطّوف أبو الحروف!!.

لطّوف ذاته، لطيف الأمس وظريفه، عفيفه وخفيفه... لكن، حين يرتكب مخالفته، تصبح العفة والخفة، وقاحة وبداحة...

ها هو الآن يدخل الزاروب من الجهة المعاكسة للسير، وبدل أن يتراجع ويفتح الزاروب للسيارات الملتزمة بوجهة السير... ها هو يفتح باب سيارته، وينزل منها غاضباً، ثم يفتح شِدْقَيْه الواسعين، ليلقي خطبة عصماء، تطرب لها حتى الأذُنُ الصمّاء...

●

والطريف الظريف، أن لطّوفاً راح يلقي المزامير، على أصوات احتجاج الزمامير.

وإليكم فقرة من فقرات خطبته اليتيمة!. العليمة الحكيمة:

يا أخي!.. حسناً سرنا عكس وجهة السير، فما الذي حدث؟. هل خربت المعمورة؟. الدنيا هذه الأيام كلها مقلوبة، كلها ماشية عكس السير... في السياسة، في الإقتصاد، في الإدارة، عكس السير...

يا أخي وابن أمي وأبي، كلها فشخة، كلها خطوة، باتجاه السير أو عكسه، لن تقف بيني وبينك... دع صدرك واسعاً... ولا تحاسبني على السنتمتر...

ويرد الآخر صاحب الحق:

ـ يا أخي ، كان عليك أن تدور الدورة، وتدخل الزاروب من المكان المسموح به، لو كنت مكاني ماذا كنت تفعل يا لطّوف؟.

ـ لو كنت مكانك، صدقني، ارجع إلى الوراء وأقول لك: تفضل بالمرور، يا أمير السبعة بحور. . . يا للخسارة، لم يعد أحد يقدّر الإحترام والكرم والمرؤة. . .

ـ يا أخي، لسنا بحاجة إلى مرؤتك وكرمك، نحتاج فقط أن تطيع إشارة السير وتتراجع.

●

وهنا ينتفض رجل المرؤة والكرم، لطّوف أبو الحروف، غاضباً، ويصرخ:

ـ ماذا؟. إشارة سير؟. مرحباً بك يا إشارة السير. . . ذكّرتني بسؤال: قل بحق عينيك من يطيع إشارات السير هذه الأيام؟. . ولمعلوماتك الخاصة، إذا كنت غائباً في رحلة إلى القمر. . . أخبرك أن إشارات السير بطلت هذه الأيام. . . لقد اصبحت إشارات للزينة ليس أكثر. . .

ـ يا رجل. . . تحضّر. . . تمدّن. . .

ـ أنا أتمدن؟. تمدن وحدك يا همج. . . أنا هكذا عال. . . أنا بغنى عن هذه المدنيّة. . . وعن نصائحك الزريّة. . .

ـ يا هذا. ما الخلاصة الآن ما الخلاصة؟.

ـ الخلاصة؟. تعرفها أنت الخلاصة. وإذا لم تكن كذلك، فاعلمك أن الخلاصة هي أنني أريد المرور. . . تراجع لي قليلاً، فأمرّ ونبلغ الخلاصة والخلاص، لا أكثر ولا أقل. . .

ـ نحن عشر سيارات وأنت سيارة واحدة.

ـ لتكونوا عشرين. . . تراجعوا كلكم أنا أريد أن أمر. . .

ـ حسناً إذن. . . لن تمر. . . لن نتراجع. . .

ـ لن تتراجع؟. رغماً عن أنفك، سوف تتراجع، وإذا وقف انفك في طريقي، فسوف اجدعه جدعاً. . .

●

وهنا اختلط الحابل بالنابل. . . ولم نعد نعرف أية أُنوف جُدِعتْ، وأيتها كُسِرت، وأَيتها سلمت. . . إنما الذي عرفناه جيداً هو أن سيارة لطّوف، هي التي يجب أن تبلغ نهاية زاروب القرواني بسلام، ودون لوم أو إعتراض. . .

وليس مهماً أبداً أن تكون دخلت الزاروب، من جهة الإشارة الحمراء، أو الإشارة الزرقاء. . . المهم أن تصل وحسب. . .

وطالما أن سيارة لطّوف سائرة باتجاه السير، فلطّوف مع القانون. . . أما إذا سارت باتجاه عكس السير، فالقانون على خطأ ولطّوف على صواب، وله الحق أن يزجر، ويعنّف، ويضرب المتحالف مع إلقانون ضده. . . فهذا التحالف ظلم للطّوف وأي ظلم. . .

بالمختصر نقول. . . الحق أو العدل، دائماً يدير وجهه صوب لطّوف. . .

●

جاري لطّوف. . . هل تسمح لي بكلمة صريحة؟. حسناً. . . شكراً.

كما تريد سيارتك اجتياز زاروب القرواني. . . سيارات غيرك تريد

اجتيازه... ولكي يجتاز الجميع، وأنت منهم، الزاروب بسلام، عليكم أن تحترموا إشارة السير... بغير ذلك، زاروب القرواني سيظل مصيدة للمارين فيه، وبالتالي سيظل غير صالح للسير...

يا جاري لطّوف... حين نسير عكس السير في زاروب القرواني، يتعرقل السير ليس في الزاروب فحسب، بل في الحي، في المنطقة، وربما في المدينة بأسرها... لأن مدينة كبيروت، هي وحدة سير لا تتجزّأ... وحين تتجمد المدينة بعرقلة السير... تنتشر الفوضى... وتُشَلّ الحركة، ودولاب الحياة يدور إلى الوراء... كل ذلك... من أجل أن تبلغ سيارتك مقصدها، قبل موعدها بدقائق...

يا جاري لطّوف... أرايت كم يفعل حب الذات، إذا زادت شحنته، عن المعدل المطلوب؟.

٢٨ ـ حادث سيارة

الطف يا رب!... حادث اصطدام في الشارع... سيارة ضربت سيارة... كان الله في عون صاحبَيْهما، على دفع النفقات، إن بقي لهما صاحبان...

الميكانيسيان والحداد هذه الأيام، تعرفتهما فاقت تعرفة جراح الدماغ...

أما مستوردو قطع الغيار ففاقوا تجار الذهب، ارباحاً ذهبية.

ماذا تقولين يا زوجة؟. أُطلُّ من الشباك لاعاين الحادث؟. لكن الليل حالك، واضواء الشارع منطفئة، بسبب تقنين الكهرباء... نامي ولا تقلقي... الله يتلقّى الناس، إذا سقطوا، برحمته.

●

وطلع الصباح، فبكت زوجتي وولولت، وأقبلت عليَّ تقول بنُواح:

ـ وحدي التي ترجو أن يتلقاها الله برحمته... لقد سقطتُ يا زوجي، وما تلقاني أحد...

وسألتُ وبحثت... فإذا سيارة زوجتي هي المجنيّ عليها... هي السيارة المظلومة المصدومة... سيارتها الواقفة وقفة انضباط... وقفة الحريص الفزعان، من عدوان هذا الزمان...

ومع ذلك... تركت السيارة الظالمة الغاشمة الصادمة... تركت

الشارع الواسع الشاسع... السالك الآمن، وطلعت على الرصيف، وسدّدت إلى سيارة زوجتي إصابة مباشرة، طار على أثرها الرفراف الخلفي، وطارت معه توابعه، وتوابع توابعه...

●

يا جيران اسعفونا... نحن عليكم دخلاء!. ووحدكم لنا شفعاء!. هل منكم مَنْ رأى؟. هل منكم مَنْ سمع؟. مَنْ الفاعل؟. من الضارب الهارب؟.

ما أقل عقولنا، يا زوجتي ويا أنا، افترضي أن احداً رأى الفاعل وعرفه، فهل يفصح لك عن اسمه؟. أو يحدثك عن كسمه؟.

كلمة الحق يا زوجة في هذه الأيام لا تقال...

لماذا؟.

لأن العنف خرّس اللسان... ولأن الناس اصبحوا «حايد عن ظهري، بسيطة» و«مازالت بطيختي سالمة، فليُكَسِّر البطيخُ بعضه بعضاً».

لا لا... اعتذر... أنا مخطيء... ولحسن حظنا... واحد من هؤلاء الناس تجرأ وحكى كلمة الحق!.

هذا الجريء البطل كان بواب المبنى... وشوشني وقال:

ـ يا فلان أبا فلان... أبو الهماهم هو ضارب سيارة زوجتك...

ـ ومن هو أبو الهماهم يا أبا الجماجم؟.

ـ هو صاحب ملحمة الساطور الذهبي...

ـ هاه... ملحمة الساطور الذهبي؟.

ـ كان سكران مَتَعْتَعًا... فصنع ما صنعًا... ومن فرط سكرته

المُدَوِّخة، داخت سيارته. . . فلم تشعر السيارة ولم تدر، إلا وهي تعتلي صهوة الرصيف، لتنطح سيارتكم، نطَح التيس الحكيم الحصيف. . .

●

ـ صبّحتك بخير يا أبا الهماهم. . . ودمت ابداً المعافى السالم!!. .

ومن طرف عينه الحولاء الحوراء. . . قذفني أبو الهماهم بنظرة شزراء، خلتها ساطور الملحمة، فرَّمَني أشلاء. . .

ـ يا أبا الهماهم. . . أنا زوج صاحبة السيارة التي. . . أجل أجل. . . السيارة التي. . . التي. . .

ولم تجرؤ بقية العبارة على الخروج من بلعومي. . . لماذا؟. لأن يد أبي الهماهم، بدأت تتفقد المسدس المغروس في وسطه. . . فيما راحت يده الثانية، تداعب الساطور. . . (مستدركاً) ليس الساطور الذهبي المرسوم على باب الملحمة طبعاً. . . إنما الساطور العادي المسنون. . . الذي في حده ريب المَنون. . .

ـ يا عزيزنا أبا الهماهم. . . أنا لم آت لا سمح الله، لأوجِّه لك لوماً أو اتهاما، بل أتيت ألقي عليك السلاما. . وبعده أسألك، إذا كانت سيارتك المصونة، مضمونة أم غير مضمونة. . أقصد مؤمّنة أو غير مؤمّنة. . .

وبصوت وحشي أجش، زمجر أبو الهماهم.

ـ أجل. . . سيارتي مؤمنة.

وسعدت للخبر وقلت. . .

ـ ما دامت سيارتك مؤمنة يا أبا الهماهم، ماذا كنت خسرت أمس، لو تكرمت وتلطفت، بعد الإصطدام وسألت عنّا، واعتذرت، وأعطيتنا عنوان

شركة التأمين، حتى نسترد منها حقوقنا السليبة، يا أبا هماهم النبل والطِيبة.

وزمجر أبو الهماهم ثانية:

ـ لست متفرغاً للتفتيش عنك، في الليل يا هذا.. مَنْ يحتاجني، يبحث عني، فيجدني... ومن جهة الإعتذار الذي تقيّأت به يا... حصان، فاعلم أن أبا الهماهم، لم يقدم اعتذاراً، طيلة عمره إلى أحد...

●

كلام صحيح... وحتى يصبح الكلام أصح... يجب أن نقول: هل من العقول أن يفتش أبو الهماهم عن صاحب الحق، الذي ابتلعه مع زجاجة باطله، فيعتذر إليه؟.

الإعتذار يا سادة... من عادات الأوادم... أنسيتِ يا زوجتي أن أبا الهماهم صار عديم المسؤولية، منذ اللحظة التي ابتلع فيها شرابه الدنس... أي قبل أن يجلس وراء المقود، وقبل أن يحوّل سيارته، من وسيلة نقل حضارية، إلى ناطحة سيارات بربرية، وربما إلى أداة قتل وتدمير؟.

ما رأيكم، يا سادة يا كرام، هل نقول أن الدنيا صارت شراً في شر؟.

لا لا... لن نقول ذلك حتى نكمل باقي الحكاية...

●

اتصلنا بالشركة الضامنة أو مؤمِّنة سيارة أبي الهماهم... ارسلت الشركة الخبير مسعود... وشوشني جار وقال لي:

ـ اسمع، دُسَّ في جيب الخبير بقرْشين، يُعْطِك بدل حقِّك، حِقَّيْن...

ـ اعجبتني الفكرة، ليس لأربح بدل حقي حقين... ولكن لأسترد حقي

كاملاً غير منقوص، ما دمت قد ضُرِبْتُ دون ذنب أو جرم... و...
وشوشت الخبير:

- يا سيد مسعود... حُلّ لي هذه المشكلة، واكراميتك محفوظة.

الخبير مسعود ابتسم وهز رأسه... وكرجل الإلكترون، المعروض في التلفزيون، صوّر الضربة، ووضع التقرير، وقدّر قيمة الأضرار، وذهب إلى الشركة، وعاد من الشركة، ثم ذهب أخرى وعاد، ولم يمضِ يومان أو ثلاثة، حتى قرع الباب، وبيده، لا بفمه، الجواب.

والجواب.. الجذّاب الخلاب.. حوالة مالية بقيمة العطل والضرر، ومع الحوالة كلمة اعتذار لطيفة...

●

ساعتها، هيّصت زوجتي وقالت في نفسها:

أيعقل أن أجعل الخبير أكرم مني؟.

وأخرجت من محفظتها مبلغاً وفيراً، وبضحكة مجاملة:

- يا سيد مسعود... هذا من قيمتنا وليس من قيمتك...

أتعلمون ساعتها ماذا حدث؟.

صدقوا أو لا تصدقوا... جمدت يد زوجتي، حاملة النقود، حين وجَّهَ لها الخبير مسعود، نظرة لوم وعتاب، رافقت قوله والجواب:

- يا أم فلان... أنا ما فعلت إلا واجباتي، التي غايتها المحافظة على اسم شركتي وسمعتها أولاً، وثانياً المحافظة على أخلاقي...

ومن قاع بحر الخجل، الذي أغرقنا فيه الخبير، سمعت قلبي يهتف ويقول:

ـ لا، لأبي الهماهم! . ونعم للخبير مسعودا . .

وطالما مسعود إنسان خير. . . فأبوا الهماهم لا يهم. . . لأن الخير يبقى. . . والشر يزول. . . أو هكذا يقول كتاب الأخلاق. . .

يا ربي، أجعل كتاب الأخلاق صحيحاً، واجعل افئدة الناس تهفو إلى محتواه. . .

٢٩ ـ حرامي الرصاص

لا أدري إذا كان من حسنات هذه الأيام، أو من سيئاتها، أنها علمتنا كلمات جديدة وعبارات جديدة...

من هذه العبارات... اطلاق الرصاص... وضرب الرصاص، أو سرقة الرصاص.

إذا احببت تفسير معاني هذه العبارات، إياك أن تعتقد أن معنى كلمة الرصاص في العبارة الأولى، له نفس معناه في العبارة الثانية أو الثالثة...

عبارة «اطلاق الرصاص»، إظن أننا فهمناها وهضمناها، وهي صارت طالعة، من فرط ما رددناها ومارسناها، من اعيننا وآذاننا.

ومن كثرة ما صرنا بارعين بفن اطلاق الرصاص، صار الواحد منا يستطيع المشي متنزهاً، بين الرصاصة والرصاصة، دون أن يصاب بخمش.

أما عبارة ضرب الرصاص أو سرقة الرصاص، فمن الصعب عليك ـ كما ارجح ـ أن تفهم مرماها، واعتقد أنه لا يستطيع فهمها سوى اثنين: عالم تكنولوجيا، أو حرامي الرصاص نفسه.

وبالرغم من أنني ـ أنا ـ لا هذا ولا ذاك، لكنني استطيع أن أعطيك ولو فكرة مختصرة عن الموضوع. والسبب أن حظي العاثر جعلني، في يوم من الأيام، ضحية الرصاص المضروب والمسروق...

- خذ نَفَساً عميقاً... واتبعني...

●

آلـو آلـو: . . آلـو. . . عجيـب، الخـط مقطـوع. . . لا حـرارة، ولا زمور. . . التلفون مقطوع، يا للتعاسة! . لماذا الهاتف اليوم بالذات، لماذا؟ . عليّ أن أجري اربعة أو خمسة اتصالات هاتفية في هذا الوقت. . . يا إلٰهي رحمتـك. . . التلفـون. . . مستحيـل. . . لا حسيـس ولا انيـس فـي هـذه السماعة. التلفون معطل. . . فلأخرج إلى الشارع، وأتلفن من هناك. . .

نزلت إلى الشارع لأتلفن، لكنني فوجئت أن كل هواتف شارعنا مقطوعة. . . والصرخة قائمة من أصحاب المحلات التجارية والمنازل، تماماً كما قامت في بيتنا. . . فلا تسمع إلا كلمة:

«ادركونا. . . التلفون مقطوع».

●

لا حاجة بنا إلى القول أن التلفون، هذه الأيام صار من ضرورات الحياة لا من كمالياتها. . .

كم من المشاكل يحلها التلفون وأنت مسترخٍ في مقعد وثير في بيتك. . . وبينك وبين من ساعدك في حل المشكلة، مسافات قد تبلغ صحاري ومحيطات. . .

ياما وفّر التلفون، في البلاد الراقية، على الناس، الوقت والتعب، والسعي والإنتقال.

ياما نظّم التليفون علاقات الناس، بعضها مع بعض، ومنع الفوضى، وأزال سوء التفاهم. . .

اكتفي بهذا، لأنني لو أردت الإستمرار في تعداد فضائل هذه الألة

العجيبة، لما انتهيت. . . فهي نعمة أنعم بها الله، عن طريق العلم، على الناس. . .

لكل هذه الأسباب، طرت إلى دائرة صيانة التلفون.

●

ـ النجدة في إصلاح هاتفي يا سيدي. . . النجدة!!. .

وخرج الجواب، من فم كبير المصلحين، ناشفاً صارماً:

ـ انتظر دورك. . .

يا سلام!. انتظر دوري؟. يا للديموقراطية والعدالة!. أفي بلادنا، وفي هذه الحرب. . . دور؟. عظيم والله!.

ـ هيه. . . ومتى يأتي دوري أيها المصلح، اصلحك الله!.

ـ علم ذلك عند الله أيها السيد، علم ذلك عند الله. . .

ـ آمنت بالله العليّ العليم. . . لكن، اعطني موعداً تقريبياً.

ـ لا استطيع يا سيد. . . لا استطيع.

م م. . . إذن دوري قد لا يأتي في شهور ولا في سنوات. . . خاطبت نفسي:

ـ يا رجل. . . اعتمد على نفسك، واستدع، كما يفعل أناس هذا الزمان، مصلح هاتف خاصاً على حسابك.

●

وهرعت إلى شاب في حينا، يتعاطى العمل في الكهرباء، قلت: هو

يتعاطى العمل في الأسلاك على كل حال، والتلفون معظمه أسلاك، كما الكهرباء . . .

ـ يا جاري وسند داري! . . خط هاتفي مقطوع، فهلا صنعت معروفاً ووصلته، والله لا يضيع أجر المحسنين؟.

جارنا الكهربائي فتش و(بحبش)، وعاد إليّ بالخبر الكوارثي المفجع:

ـ عوّض الله عليك يا سيدي في هاتفك.

وأجبت مولولاً:

ـ واهاتفاه! . ماذا حدث يا جار . . . وماذا وقع وصار؟.

ـ يا سيدي . . . بعد شهر، بعد شهرين، وربما بعد سنة، قد يُصلَحُ هاتفك، وقد لا يُصْلَح.

ـ وقد لا يصلح . . . ولماذا؟.

ـ هاتفك يا سيدي، رصاصه مضروب.

ـ رصاصه مضروب؟.

ـ أو مسروق.

ـ والهاتف، يا جار، هو أيضاً، هذه الأيام صار له رصاص، كالمسلحين واسلحتهم؟.

ـ يا سيدي، الهاتف له رصاص من قديم الزمان، لكن رصاصه، لا يلعلع ولا يئزّ ولا يقتل . . . إنه كابل أو حبل (كما في أصل الكلمة) مصنوع من معدن الرصاص، وذلك لوقاية اسلاك الهاتف الدقيقة السريعة العطب، الموجودة في داخله، تحت الأرض.

ـ حسناً فهمت الآن. . . لكنني لم أفهم كيف يُضرب الرصاص أو يسرق، وهو تحت الأرض. . . هل تسرقه عفاريت الجان، الساكنة الطبقات السفلى من الأرض؟.

وضحك جاري الكهربائي المصلح وقال:

ـ بل عفاريت ما فوق سطح الأرض، سرقت الرصاص يا سيدي. . .

ـ وكيف كان أو يكون ذلك؟.

●

ـ شبكة الهاتف المطمورة تحت سطح الأرض، لها فتحات إلى الشارع، مغطاة بغطاء حديدي مستدير.

ـ نعم نعم. . تذكرته وعرفته. . .

ـ عفريت الرصاص. . . أو لص رصاص الهاتف، يزيح الغطاء عن فتحته، وينزل من الفتحة، حتى يصل إلى كابل الأسلاك الرصاصي، فيسرق أكبر قطعة منه يستطيع بلوغها، ليبيعها فوق الأرض، إلى لصوص آخرين، بأسعار مرتفعة.

ـ يبدو أن هذا المعدن غالي الثمن؟.

ـ طبعاً، هو غالٍ بحد ذاته، فإذا احتاجته شبكة هاتفية، كان أغلى.

ـ علمنا معنى الرصاص المسروق، فهلاّ زدتنا علماً، زادك الله فهماً، بالرصاص المضروب؟.

ـ اللص ذاته. . . قد لا يسرق الرصاص، ويستنسب ضربه، أو سحقه

بأداة ثقيلة حادة، حتى يتعطل، أو يقطع كل ما تحت الضربة، من خطوط هاتفية.

ـ وما فائدته في ذلك، ذاك الأرعن الألعن؟.

ـ هذا الضارب، يكون عادة من مَهَرة مصلحي الهاتف المشهورين في الحي... فحين يُضرب الرصاص، وتتعطل الهواتف، تقوم الصرخة، ويتنادى أهل الحي لاصلاح الهواتف، ويستدعون أمهر المصلحين، أي صاحبنا ضارب الكابل، أو شريكه في عصابة ضرب الرصاص، فيقوم بإصلاح الهواتف، قابضاً من أصحابها الملهوفين على سلامة هواتفهم، «خوَّة حرزانة» مبالغ طائلة...

ـ شكراً على هذه المعلومات الوافية الكافية... والآن... أريد اصلاح هاتفي... فما العمل؟.

ـ ليس لك ولجيرانك إلا أن تنتظروا.

ـ إلى متى.

ـ إلى أن يقرع لص الرصاص أو لصوصه عليكم الأبواب، ويتفقوا معكم على أجرة الإصلاح والأتعاب...

●

ـ آه يا بلدنا!... وهذا ما حدث... انتظرنا طويلاً، إلى أن ظهروا... نعم ظهروا ولهم وجوه أطفال ابرياء... ولم يكن ينقصهم لكي يصبحوا ملائكة، إلا أن يركّبوا لأنفسهم أجنحة شفافة...

جاؤوا وشتموا، طويلاً طويلاً، لُصوص رصاص التلفون... وبعد حملة الشتم قالوا لنا:

ـ المسألة تحتاج إلى عمل كثير مرهق... لذلك على كل بيت أن يدفع خمسين ليرة...

يا لصوص الرصاص!.. الخمسون ليرة بسيطة... ندفعها... لكن... كيف تركتمونا ثلاثة أشهر بدون هاتف؟.

هذه التي ليست ـ والله ـ بسيطة...

يا لصوص الرصاص!.. إلى أن تلقي القبض عليكم يد القانون قريباً إن شاء الله، وتجعلكم عبرة لمن يعتبر... يا ليتكم تأخذون منا الليرات الخمسين، من دون أن تتعبوا أنفسكم، وتتعبونا معكم بسرقة رصاص الهاتف أو ضربه...

يا لصوص رصاص الهاتف... ألم يكفكم حرق أعصابنا برصاص ما فوق الأرض، فَرُحْتُم تُكْملون حرق الأعصاب هذا، برصاص ما تحت الأرض؟.

٣٠ ـ النظام العالمي الجديد

«النظام العالمي الجديد».. عبارة نسمعها اليوم في كل مكان.. نقرأ الصحيفة فنجدها متكررةً عشرات المرات، ونسمع المذياع ونشاهد التلفزيون، فنسمعها ونشاهدها، في برامج التسلية، كما في البرامج السياسية الرصينة...

ومن هذا التكرار البالغ حد الثرثرة العالمية، يبدو لنا أن العالم (وخاصة عالم الأقوياء، عالم الغرب غالباً، والشرق أحياناً) قد ادرج العبارة، في قائمة اختراعاته الكبرى...

يأخذنا سحر العبارة، حتى نسعى إلى فهم معناها... والمعنى تجده دائماً واضحاً جلياً، في تطبيقه أو تجسيده، على أرض الواقع...

لكننا ـ أسفاه! ـ ما إن ننزل إلى ارض الواقع، حتى نجد النظام العالمي الجديد، نظاماً عالمياً عتيقاً، بالياً، بدائياً، همجياً. يذكرنا بخطيئة أبينا وأمنا الأولين، يذكرنا بقابيل وهابيل، يذكرنا بشريعة الغاب، وإذا شئنا المهاودة والتلطيف والتزويق، قلنا: يذكرنا بغريزة الإنسان، الذي إذا ملك القوة، فكل ما يفعله، عادل ولو طغى وبغى، وكل ما يرسمه، مستقيم ولو أعوجّ والتوى.

غريزة الإنسان، ليس فقط في البيت الأبيض والكرملين، بل في دول العالم الثالث، و... صدقني... في الضيعة البدائية المتخلفة...

●

النظام العالمي الجديد، اللامع المتألق، يقضي قانونه الأسمى، بأن يدمَّر البشر والحجر في العراق، بل يدمر الحجر على رؤوس البشر، بل يُطمر البشر أحياء في ملاجئهم، بالبولدوزرات، والجرّافات والدبابات...

ويقضي بأن تُمْحَى كل مُنْشَأَةٍ على أرض العراق، يُشْتَمُّ منها أية علاقة لها، من قريب أو بعيد، بالسلاح، تقليديِّه وعَصْريِّه. وبذلك أُمِّنَ الغطاء، لتدمير منشآت السلع السلمية والمدنية، حتى معامل حليب الأطفال دُمِّرَت، بذريعة علاقة لها، غير مباشرة، بالسلاح...

ويقضي النظام العالمي الجديد، بأن تُفْلَح أرض العراق، بمحاريث الطائرات العملاقة، قصدت القنابل العنقودية، والإنشطارية، والفوسفورية، تذهب عميقاً عميقاً في الأرض، لتبحث عن سلاح، حتى ولو كان السلاح، سكيناً لتقشير البصل، أو قَلاَّمة أظافر، أو ملقط شعر لأهداب حسناء...

ويقضي بأن يظل العراق، برجاله ونسائه وأطفاله، محاصَراً جائعاً عارياً أعزل، السنوات الطوال، التي قد يمتد طولها، بعيداً خلف آفاق الزمن الذي نعيش فيه.

●

هذا الترياق، قارئي العزيز، نجده في العراق، ولكن!...

ولكن... في نفس الوقت، ونفس المنطقة، يقضي النظام العالمي الجديد جداً، بألا تُمَسَّ إسرائيل، المعتدية على العرب، وأرض العرب، وتراث العرب، نصف قرن من الزمان، حتى الآن.

ويقضي بأن يُشطب اسم إسرائيل (نحن مازلنا في عهد نبش أرض العراق بحثاً عن سكين تقشير البصل) بأن يشطب اسم إسرائيل، الذي ادرج

ظلماً وعدواناً، في قائمة الدول، الموضوعة تحت الرقابة النووية الدولية، أن يشطب اسمها من هذه القائمة، كي يتسنى لهذا الدولة المظلومة جداً، أن تستمر بهدوء وسكينة، في زيادة عدد قنابلها النووية، بالمقدار الذي يناسب حرب تحرير ارضها، التي اغتصبها العرب منها، ظلماً وعدواناً، حرباً بعد حرب بعد حرب.

ويقضي النظام العالمي الجديد جداً، بأن تُشَدَّد الرقابة، في نفس الوقت، ليس على العراق فحسب، بل على الدول العربية كلها، بغض النظر عن صداقتها المستميتة في الاخلاص، لربة النظام العالمي الجديد، وذلك لاقامة توازن القوى العادل (اتسمع قارئي؟. توازن القوى العادل) في المنطقة. لأن إسرائيل، الصغيرة الضعيفة، تحتاج إلى النووية المدمرة، حاجة ماسة، لتردع بها الدول العربية، التي تهدد إسرائيل بجبروتها (اتسمع؟. جبروت الدول العربية) العسكري العملاق. . .

وليظل الذئب يوازن موازنة عادلة، قطيع الأغنام الطويل العريض. . .

●

ويقضي النظام العالمي الجديد، في نفس الزمان وعلى سطح نفس الكوكب، بالاّ تطير طائرة حربية واحدة، فوق الصرب، حتى وهم يذبحون القلة المسلمة في البوسنة، ويقيمون بعد كل غزوة، لمدنهم وقراهم، معسكرات اغتصاب الفتيات القاصرات، في مظاهر هستيريا همجية، لم تشهد مثلها عصور البربرية، في تاريخ ما قبل التاريخ.

لكن إذا طارت طائرة مرة، في برنامج استعراضي كاذب منافق، ينتهي بإسقاط الصرب لها، يُسْقَط في يد الدولة العملاقة وسيدة النظام العالمي الجديد، وتجمع الدول قاطبة، للإستشارات العاهرة، والمناقشات الفاجرة

فيما يجب فعله، إزاء العدوان الظالم، من الصرب على اضعف (نعم. . . على اضعف) دولة في العالم ـ آنئذٍ ـ والمسماة الولايات المتحدة.

وحتى الآن لم تستطيع ادمغة الولايات، ولا الغرب ولا الشرق، أن يجدوا حلاً لهذا اللغز، ومخرجاً من هذه المتاهة. . .

●

ويقضي النظام العالمي الجديد، أن يغزو الجيش الذي كان أحمر، فصار أبيض، أو أخضر أو أسود، والذي دخل برلين، وحطّم الآلة النازية وايديولوجيتها، فوق رأس هتلر. . . أن يغزو هذا الجيش، شعب الشيشان، البالغ تعداده مليوناً ونصف المليون، من الفقراء، والأبرياء، والمسالمين، لأنهم ارتكبوا جريمة لا تغتفر، فطالبوا بالاستقلال عن دولة الطاغوت، شأنهم في ذلك، شأن الكثير من الدول التي استقلت، بعد انهيار الكيان السوڤياتي القديم. . .

●

وتتصدى الولايات المتحدة، بموجب النظام العالمي الجديد، القوي والعادل. . النظام الذي فلح العراق، ودجّن العرب لصالح إسرائيل، وتفرج حتى شبع، على مجازر ومخازي الصرب في البوسنة والهرسك، وعلى مفاعلات صحراء النقب، الناشطة في إباضة قنابل الإبادة والإفناء.

تتصدى الولايات المتحدة بموجب ذلك النظام، لطاغوت الروس، لرفع ضغطهم عن الشيشان المساكين الضعفاء فتسفر نتيجة التصدي، عن عبارات لوم وعتاب وُجِّهَتْ، أول الأمر، عنيفة إلى يلتسين، ثم راحت تخف تدريجياً إلى أن زالت.

وعندها استرخى الجيش الأحمر الأبيض الأخضر الأسود، بثقله وآلياته

العملاقة، على صدور الشيشان الضيقة، فأخمدت فيها الأنفاس.

●

في دولة صغيرة صغيرة من العالم الثالث، كانت متقدمة قليلاً، فاجتاحتها سبع عشرة سنة، عجفاء كأداء شمطاء، دفعتها قروناً إلى الوراء.

بعد السنوات العجفاء والكأداء الشمطاء... سكت المدفع.. وجيء بحكومة لا أحلى ولا أبهى، ولا أقوى ولا أعتى.. أعجبها النظام العالمي الجديد، فتبنَّته في الحال، وراحت تهلوس به وفيه...

وبدا أنها شرعت في تطبيقه، ليس على الصعيد العالمي، بل على الصعيد الداخلي.

وبموجبه، اعتلى قتلةُ الحرب عروش الحكم، وحكموا الشعب المثخن بالجراح، بلباس مرقط شرعي، بعد أن حكموه واثخنوه بالجراح، نيفاً وعشر سنوات، باللباس الكاكي، والطاقية ذات الشرّابة، التي اعتاد أن يلبسها القنّاص، لتدفيء رأسه، فتظل عيناه سليمتين حديدتَيْ البصر، حين يصوّب فوّهة بندقيته الـ (إمْ سكستين) إلى قلب طفل، يعبر الشارع، المولج قناصنا الهُمَام، بإخماد حركة أي متحرك فيه...

وبدأت حكومة النظام الجديد تطبيق العدالة، فصدر عفو عام، جاهز ناجز، عن مرتكبي المجازر، واغنياء اللصوصية، وحَمَلَة ريموت كونترول(Remot control) السيارات المفخّخة...

لكن الذي بدّل تحويشة عمره بالدولار، ليحفظ، قدر الإمكان، قيمتها الشرائية، حين تخلت الدولة عن عملتها الوطنية، وراحت تضارب وتتاجر بالدولار بل بمليارات الدولارات، وقالت للشعب: «قبّعْ شوكك بيديك»... نقول: لكن الذي بدّل تحويشة عمره بالدولار، فقد اعتبرته دولة النظام

العالمي الجديد مجرم حرب. وبمفعول رجعي (حسب التعبير الإداري المعروف) وضعت في يده الحديد، واودعته السجن. . .

وبرِّئت بموجب النظام المعبود، ساحة قصّابي البشر. . السفاحين الذباحين، بينما حوصرت ساحة فتىً مراهق اغتصب فتاة، فنُصِبَتْ من أجله المشانق، وراحت ساقاه الصغيرتان تتأرجَحان في الهواء، لتقولا للأشرار:

ـ عُوا وأرْعَوُوا يا أولي الألباب!. اياكم والقاصرات، لكن غير القاصرات، مباح لكم، فكلوه هنيئاً واشربوه مريئاً.

لكنّ أولي الألباب، الذين اقفلوا على ألبابهم كل باب، لم يعوا، ولم يرعووا، عن شيء، ونفذوا القسم الثاني من وصية المراهق المغتصب، فشددوا النكير، عمّن نجوا من مجازرهم السابقة، فراحوا يذبحونهم، هذه المرة، بالإحتكار وفحش الأسعار، والاثراء غير المشروع، ونهب الأموال، خاصّها وعامّها.

●

النظام العالمي الجديد، ينتعش ويقوى، حتى يمتد ساعده إلى. . . إلى القرية!!.

نعم. . . إلى القرية!!. القرية المتخلفة، التي لا يشار إليها ولو بنقطة، في خارطة النظام العالمي الجديد.

جاءت لجنة المساحة إلى القرية لتمسح أراضيها، وتحدد حدودها وتثبّت ملكية المالك، فتمنع عنه الجور والعدوان.

مسحت الأراضي، بكل عدالة ودقة النظام العالمي الجديد، الذي فهمت مجمله دون تفاصيله طبعاً، فأعطت أرض هذا إلى ذاك، وأرض ذاك

إلى ذيّاك... لكن المُعْطَى دائماً هو المكين البدين السمين، والمُعْطِي أو المأخوذ منه، هو الضعيف الخفيف النحيف.

ومسحوا وخططوا طريقاً، تمر بين عدة أراضٍ زراعية... وبالرغم من أن المخططين والمسّاحين، كانوا يحملون المساطر والأُكَرَ والبراكير، إلاّ أن الطريق، ظهرت في الخريطة، متلويّة تلوّي الأفعى...

وقام فتى يافع طاهر، يُحسن قراءة الخرائط، ويعرف أصحاب الأراضي المتاخمة لها.. لكنه ـ يا للأسف والخسارة ـ كان يشكو سلاطة في اللسان، فراح يقرأ على مسمع من الناس، خريطة الطريق الزراعي، على هذا النحو:

●

تبدأ الطريق عند زاوية السيدة نجلاء الحسناء، الطروب اللعوب، فتسير محاذية لأرضها، دون أن تمسسها بسوء. لكنها ما إن تصل إلى أرض الأجير الأعرج واكد الزمّار، حتى تنطح الطريق جدرانها، فتزيلها من الوجود؛ وتدخل الأرض، فتسير فيها مقتطعة قسماً كبيراً منها، وذلك طبعاً لتتجنب أرض المختار، سليم الجبّار، المقابلة لأرض الزمّار. فارض الجبّار حرام أن تمس، لأنها مطلة على الضيعة إطلالة رائعة، ومتر الأرض فيها يساوي المثاقيل من الذهب، بينما أرض الأجير الأعرج الزمار لا قيمة لها ولا ثمن، ولا تطل على أحد، ولا أحد يطل عليها...

ملاحظة ـ هنا ـ غير مهمة: واكد الزمار، لا يملك على سطح الكرة الأرضية، سوى هذه الأرض، التي ليست هي في الحقيقة، أكثر من شريط ضيق، عرضه متران وطوله ثلاثون متراً.

والطريق الزراعية، تستمر في التقدم عبر الأراضي المتاخمة، ويكمل سليط اللسان قراءة معالمها:

●

تصل الطريق إلى أرض «باهرة» التاجرة الفاجرة، فتنطح جدارها العالي، وتصرّ على هدمه واقتطاع ما وراءه من أرض، لتظل الطريق هذه المرة مستقيمة عادلة، استقامة وعدل النظام العالمي العتيق لا الجديد.

وحين اعطى المهندس، رئيس اللجنة، الأمر بهدم الجدار، انقض عليه، زعيق امرأة من أعلى الجدار، يقول:

ـ سأقطع اليد... التي تمتد... إلى الحائط أو الحد... يا مَنْ لا يُعرف له أب أو جد.

لم يكن المهندس السباق عندئذ، إلى الفرار، بل الطريق فرّت ودخلت دوارة أم فيروز، الأرملة العجوز، التي خلا بيتها من الإبريق والكوز، فعاثت فيها فساداً...

قطّعت أوصالها، ونبشت حيطانها، واقتلعت اشجارها... فلا تين ظل ولا زيتون، ولا إسكِي دُنْيا ولا ليمون، حتى أمطرت عينا أم عساف الحيزبون، دموعاً تفيض بها بحيرة قارون.

وهكذا، وعلى هذا النمط استمرت الطريق الزراعية قويمة مستقيمة، بالرغم من أن قويمها كان مدوّراً، ومستقيمها مكوَّراً..

●

وابتسم النظام العالمي الجديد، في الضيعة، ابتسامة الرضى وفطن إلى أنه آن الآوان، لإنتاج مساطر هندسية مدورة، وأخرى مكوّرة، وثالثة مزكزكة (الصفة مشتقة من كلمة زيكزاك الأجنبية).

وبذلك، صار بمقدور المسؤولين عن النظام العالمي الجديد، أن يعتزوا، ويفاخروا سكان الكرة، بمرحلة اضافية جديدة، من عملية تطوير

أدوات العدالة والسلام، تطويراً تظلل الديموقراطية معه، كل كائن على وجه الأرض بأجنحتها الرحيمة الحنون. . .

●

وبعد، يا سادة يا كرام. . . استحلفكم بأكبر شاربين، في أكبر دولة على وجه هذه الأرض. . . أين الجِدَّةُ في النظام العالمي الجديد، الذي رأيناه في العالم؟. وفي دولةٍ ما؟. وفي ضيعةٍ ما؟.

بربكم قولوا. . . أليس الذي حدث في ضيعتنا، هو ذاته، الذي حدث في الدولة المتخلفة، والذي حدث في بلاد طواغيت العالم؟.

ألا يدلكم التشابه الفظيع بين المستويات الثلاثة، على أن القوي يعيش، والضعيف يموت. وأن السمك الكبير يأكل الصغير. وأن الأسد يقتل الضبع، والضبع يفترس العنزة. . . والعنزة تأكل زرع الجيران الضعفاء. . إلا إذا كان الجيران أقوياء، فعندها. . . العنزة هي التي تُؤكَل، والذي يأكلها. . هو زرع الجيران. . .

شريعة الغاب هذه؟. نعم. . . شريعة الغاب. . والنظام العالمي الجديد، هو هو منذ بدائيّة الحياة وحتى اليوم. . .

والإنسان هو الإنسان. . منذ خلق، وحتى ما يُسمى بعصر الحضارة الحديثة. . .

رباه. . . إذا كان ذلك كذلك. فإلى متى ننافق، في مدح هذا الشرير الذكي؟!. .

٣١ ـ بائعة اليانصيب

بائعة اليانصيب!. يا بائعة اليانصيب... اقتربي مني. أعطيني نصف ورقة... كم ثمنها؟. ليرتين ونصف؟. تفضلي... هذه ثلاث ليرات... سلمت يداكِ... وداعاً...

نعم؟. باقي لي نصف ليرة؟. بسيطة... هو لك حلال زلال... كيف؟. لا تقبلين أخذ نصف الليرة؟. حسناً، لا تغضبي... سآخذ نصف الليرة... لكن على شرط... أن تقولي لي كم عمرك، ومن أين أنت، وما أتى بك إلى بيروت، ولماذا تبيعين اليانصيب؟.

ابتسمت البائعة العجوز ابتسامة المحبة، والطهارة، والأمومة، والحزن، والصبر الجميل... وقالت:

ـ عمري يا بنيّ حوالي ستين سنة، وأنا من الجنوب، اتيت إلى بيروت مهجّرة، بعدما هدم الإسرائيليون بيتي، وقتلوا زوجي وولدي.

أنا الآن أبيع أوراق اليانصيب، لأحصّل معيشتي، فلا أُثقل كواهل أولادي، الذين كلٌّ منهم «همُّه على قدّه»...

إزاء هذا الكلام... لم أنبس ببنت شفة... رددت فقط على ابتسامتها، بابتسامة مبللة بدمعتين، حاولت جاهداً حبسهما في محجريّ، فلم أُفلح... وأقلعت بسيارتي... لكنني ما إن وصلت إلى البيت، حتى شرعت في كتابة هذه الرسالة:

●

يا بائعة اليانصيب الجنوبية!.. لن أبكي عليك ولن أولول... لن اصف الكارثة التي حلت بك وبزوجك وأولادك...

لن أعدَّ المشاكل والمصاعب، التي تقاسين منها، في أيام بخيلة كهذه الأيام... لن أفعل شيئاً من كل ما تقدم...

ما سوف أفعله فقط، هو أن أعلن اعتزازي بك، وافتخاري بك، وافتخاري بالأرض التي وُلدتِ وعشتِ فيها، قبل أن تسكني تحت إشارة السير الضوئية، عند مفترق اربعة شوارع.

يا بائعة اليانصيب الجنوبية... صرتِ رمز الكرامة، حين قررت أن تبيعي اليانصيب، بديلاً عن مد يدٍ ذليلة للرائح والغادي... صرت أنت الكبرياء والعنفوان، حين أصررت على أن تردي إليّ نصف الليرة، وأنت في أمس الحاجة لكل قرش من قروشها...

يا بائعة اليانصيب الجنوبية! كم كنت عملاقة، حين خلقت من شيخوختك شباباً، ومن ضعفك قوة، ونزلت ميدان العمل والكدح، صامتة صابرة، وابتسامة الوداعة والسلام والرضى، مرسومة على محيّاك.

يا بائعة اليانصيب الجنوبية!... أنت رمز لبنان... لبنان العنفوان... لبنان الكرامة... لبنان الصامد الصابر، المصمم على الحياة، مهما كانت صعوبة الحياة، ومهما كانت المؤامرات المحدقة به والأخطار...

أنت وحدك يا بياعة اليانصيب الجنوبية... جديرة بلبنان... وحدك الجديرة بلقب المواطن المخلص للوطن... لأن الاخلاص يُقاس بما يُعطَى، لا بما يُؤخَذ... فياما أعطيت أنت منذ عشرات السنين، ومنذ عشرات السنين لم تأخذي إلا القليل القليل...

●

لكل ما تقدم. . . ارشحك يا بياعة اليانصيب، لأن تكوني محور اهتمام لبنان، بكل مَنْ فيه، وبكل ما فيه.

وفي ختام رسالتي. . . مني لك يا مهجّرة الجنوب، يا ضحية غطرسة القوة، الف تحية محبة وإعجاب. . . انثرها على وجهك الطيب الصبوح. . الشبيه بوجه أمّي، الشبيه بوجه كل أُمّ شامخة النفس فيّاضة الحنان. . الشبيه بجنوبنا الغالي العزيز!! . .

٣٢ ـ العاجز

كنت وصديقي في سهرة دانسنغ كلوب (dancing club).. وخلال رقصة «جيرك» عنيفة، لفت نظرنا شاب راح يرقص وحده، أي دون «كاڤاليرة» تشاركه الرقص...

ولاحظنا أن الشاب، كان يرقص، ووجهه دائماً موجّه إلى أحد أعمدة النادي...

غَريب!. هل فضل هذا الشاب، مراقصة الأعمدة، على مراقصة النواعم؟.

لا... لم تكن المسألة هكذا... والحقيقة أن الشاب حين كان يتجه بوجهه صوب العامود، لم يكن يعرف أنِ أمامه العامود... لأنه كان كفيفاً...

●

كفيف؟. يا للعجب!... هذا الشاب المرح السعيد، الذي يتقن الرقص كل هذا الإتقان... كفيف؟.

نعم... كفيف!... ولكن... لِمَ العجب والإستغراب؟.

في بلادنا قد يكون الكفيف ـ في نظر الجاهل ـ شخصاً غير عادي، أمّا الكفيف في البلاد الراقية، فشخص فقد طاقة البصر، لكنه لم يفقد طاقاته البشرية الأخرى، الكثيرة والمتعددة... والقادرة على الإنتاج والعمل...

هذه المشاهدة... كانت في أوروبا... لكن صديقاً سافر إلى الولايات المتحدة، نقل إليّ نادرة حدثت معه، كانت أطرف وأقوى مما تقدّم... وتندرج في إطار هذا الموضوع...

قال الصديق:

●

كنت استعد لأقطع شارعاً مزدحم السير، من رصيف إلى رصيف، حين لفت نظري رجل كسيح، يركب عربة خاصة بأمثاله... ويحاول أن يقطع الشارع مثلنا من الرصيف إلى الرصيف...

كان منظر الرجل عادياً ونظيفاً ومرتّب الهندام... لكن الذي جعلني اهتم به، أنه كان يحاول جاهداً، إنزال عجلات عربته من حافة الرصيف العالية، إلى الشارع...

ثارت فيّ، إزاء هذا المنظر، الحمية الشرقية لمساعدة الضعفاء العاجزين، وهجمت هجمة إنسانية زادت ـ كما ثبت لي فيما بعد ـ عن اللازم...

أمسكت بيديّ قبضتَيْ العربة، ودفعتها بقوة فنزلت العجلات عن الرصيف إلى الشارع الممهّد... وانتهت المشكلة...

●

المشكلة انتهت، في نظري، لكن مشكلة أخرى، ناتجة عنها، عنيفة شرسة، بدأت بهذا العمل الإنساني الذي قمت به...

لاحظت أن صاحبنا الكسيح، أظهر ممانعة، حين رآني أنزل عجلات عربته عن الرصيف... وكأنني به لا يريد مساعدتي له.

وبمفاهيمي الشرقية، الحافظة قوانين المروءة وواجبات النجدة، فسّرت ممانعة ذلك العاجز تفسيراً بروتوكولياً، فظننت أن الرجل يظهر الممانعة كمجاملة لي، وكرغبة منه، في عدم ازعاجه لي، في مساعدته...

لكنني أصررت على المساعدة، ودفعت عربته، حتى أصعدته الرصيف الآخر للشارع... وهناك حدثت المفاجأة الصاعقة...

●

حين هممت بالإبتعاد عنه، راضياً عن عملي وانسانيتي، استوقفني الرجل بقوة، وسألني أن أعطيه اسمي وعنوان إقامتي...

وبعد أن أعطيته ما يريد، ظاناً أنه يريد أن يشكرني، في رسالة يرسلها إلى عنواني، تكون بداية صداقة بيننا طويلة، عرفت أن المسألة تتجه اتجاهاً مغايراً معاكساً...

الرجل أخذ اسمي وعنواني، ليعرف أين ترسل لي المحكمة، ورقة الإستحضار، للمثول أمامها، في الدعوى التي ستقام عليّ، من قبل الرجل الكسيح.

ـ يا عزيزي... بأية تهمة سوف ترفع عليّ دعوى؟.

ـ بتهمة اهانتك لي.

ـ أنا لم أهِنْك... أنا ساعدتك؟.

ـ ومَنْ طلب منك مساعدتي؟.

ـ لا ضرورة لطلبك المساعدة مني... عليّ أنا أن ابادر إلى مساعدتك، دون أن تطلب...

ـ لماذا؟.

ـ لأنك... لأنك...

ـ لأني عاجز... نعم... بمساعدتك لي دون طلب، تريد أن تفهمني بأني عاجز، وبأني ضعيف، وبأنك القوي... وهذه إهانة صريحة لكرامتي... علماً بأني لست عاجزاً... عجزي أزلتُه بالعربة التي اركبها. وبيديّ القويتين كيديك، ادفعها حيثما اشاء... وحيث أنت تحل وترتحل...

بالعربة أصبحت وإياك سواسية.

كلانا إنسان قادر، ولا أحد منا ضعيف أو قوي... كلانا قوي... لكنك أنت أصررت على أخذ دور القوي، واعطيتني دور الضعيف... فأهنت كرامتي... ولهذا سوف أقاضيك...

●

ولما كنت أعرف صرامة القضاء والمحاكمات، في تلك البلاد، وحساسيتها المرهفة لمثيلات شكوى ذلك العاجز، (وقع الهمُّ في ركبتيَّ) كما يقولون، ورحت أردد:

ـ يا للورطة التي سقطت فيها!.

ثم رحت أستجديه السماح:

يا أخي حَلِّلْ حَرِّمْ... تهاود معنا... ارجوك... بِعْنا إياها برأسمالها... أنا غريب عن هذه البلاد، ولا أعرف عادات أهلها وأخلاقهم... لقد ظننت أنني قمت بعمل يسعدك ويوجب شكري... لذلك ارجوك أن تصرفها بيننا بالمحبة والوفاق...

و. . . بعد الف طلب ورجاء. . . قبل صاحبنا اعتاق رقبتي، وتبرئة ساحتي، من الجريمة التي ارتكبتها. . . لكن ليس قبل تنفيذ شرط اشترطه عليّ. . . ما شرطك يا عزيزي؟.

ـ أن تدفع عربتي، فتردني إلى الرصيف الأول حيث كنت، لأعود وحدي، وبقدرتي الذاتية. . . إلى الرصيف الثاني. . .

ـ حاضر. . . على رأسي قبل عيني. . .

نفذت الشرط، ويا ساقيّ اعيناني على الطيران. . .

●

النادرة مزعجة أليس كذلك؟. وخاصة حين يصبح عملي جرماً وذنباً، بعد إذ رجوته خدمة إنسانية وسلوكاً خيِّراً. . . لكن. . . والله. . . إن لي إزاء النادرتين هاتين موقفاً وحكماً. . .

●

الكفيف والكسيح. . . درس بليغ لذلك الجيش من المتسولين، على أرصفة بيروت ومفترقات شوارعها. . .

متسولون هم، في كامل طاقاتهم الجسدية والعقلية، يقومون بإزعاج الناس، وإذلال أنفسهم، وسَحْق انسانيتهم، من أجل دراهم معدودات، لا تشبع بطناً، ولا تكسو جسداً. . .

إلى هؤلاء أهدي نادرتَيْ الكفيف والكسيح. . .

وأهدي النادرتين أيضاً، إلى كل انهزامي إتّكَاليّ في مجتمعنا، يقيم الدنيا ويقعدها، إذا ما أصبع من أصابعه التوى، أو أنكسر، فيبتزّ مَنْ حوله بإصبعه، ويجيز لنفسه أن يكون عالة على الأهل، أو الصديق، أو الدولة. . .

٣٣ ـ مدير عام

حدثني فلان، عن علاّن، فقال:

صار موظفاً من الفئة الأولى! . . . صار مديراً عاماً!!.

منصب كبير! . . .

بعد الوزير، مباشرة، يأتي المدير العام. . .

حين صدر مرسوم ترقيته، اهتز مجتمعه الأقرب. . . واهتز كيان كل مَنْ عرفه. . . قريباً كان أو بعيداً. . .

اهتزاز المجتمع والكيان حدثا، لأن المدير العام، لم يكن يتوقع، فجر عُمُره الوظيفي، بلوَغ أكثر من كاتب أو محرر، في دائرة من دوائر الدولة. . . وحدود حلمه المعقولة، رسمتها امكانات ثقافية ضعيفة، ومساندة سياسية معدومة، وطموحات مستقبلية، إن شطحت وتمردت، لا تتجاوز رتبة الفئة الثالثة[1].

لكن الزّمن والحظ، يغيرّان ما لا يتغيرّ. . .

ثلاثون عاماً من الدأب الوظيفي، كانت زمناً كفؤاً ليغيّر ما لا يتغيّر، كفؤاً ليفعل كل عجيب.

---

(١) الفئة الثالثة هي واحدة من فئات الموظفين الأربع في الإدارة اللبنانية: الرابعة والثالثة والثانية والأولى التي هي رتبة مدير عام.

وتأبط الحظ السعيد ذراع الزمن، فبُلِغَتْ الغاية البرّاقة بريق الأساطير.

●

. الحظ السعيد الذي تأبط ذراع الزمن، كان تدابير إدارية استثنائية، اعتُمدت لمرة واحدة، فأمسكت بتلابيب الكاتب، ورفعته عالياً في الهواء، ثم ألقته فاستوى جالساً على كرسي، لم يعرف أنه كرسي رئيس دائرة من الفئة الثالثة،. إلاّ بعد أن رأى جمعاً من الكتبة يحيطون به، وقد زرَّروا سُتُراتهم، قبل أن ينحنوا له تزلّفاً واحتراماً.

بدخوله فردوس الفئة الثالثة، صارت أبواب إدارة الدولة جميعها، حسب قانون الدولة، مفتوحة الذراعين له.

وصارت حواجز التقويم (وأفضّل كلمة «تقييم» هنا) الثقافي والإداري، التي تقلق كل موظف يسعى إلى الترقي، منذ الآن، خلف صاحبنا علاّن لا قُدّامه.

لماذا تبتسم، قارئي، ابتسامة جانبية ماكرة؟. اتقول إن هذا برهان ساطع، على الحماقة والتبلد الذهني الإداري؟.

سامحك الله!... دعنا نكمل ملحمة صاحبنا علاّن...

●

راح الزمن يعمل، والصدف السعيدة عملت، وحتى لا نظلم الرجل، فقد عملت، أيضاً، صفات له حميدة، أهمها دماثة الخلق، والتزام حازم بالعمل، خلقه ما يشبه حالة المتشبّث بقائمتَيْ طائر، إن أفلت منه، خسر، أولاً، الصعود إلى العلاء، وانتكب، ثانياً، بانسحاق السقوط إلى الحضيض.

وبتسهيل مرور الزمن، الذي يخط في الواقع أثلاماً عميقة، بصبر

جميل، ويد خفية. وبانحسار التزاحم على المعالي، في غبار الحرب وفوضاها، بسبب هجرة الكفاءات أو تهجيرها، تدرّج رئيس الدائرة إلى مدير مصلحة. . . وأخيراً، إلى منصب مدير عام، كامل تام، تمام البدر في ليلته الرابعة عشرة.

و. . . بدأ يتقبل التهاني، من طلاب ودّ وطلاب نفع. .

●

ساءل فلان نفسه: «وأنا. . . ألا يجب عليّ أن أقدم التهاني»؟.

«بلى. . . عليّ أن أفعل ذلك» قال فلان «لأن ما كان بيني وبين علاّن، ردحاً من زمن الشباب، لا يمحوه زمن، حتى ولو كان ثلاثين عاماً، ولا يفصم عُراه عالي الرُتَب، حتى ولو كان رتبة مدير عام».

واطرق فلان هنيهة، فتجهّم وجهه حين عبر في مخيلته السؤال:

ـ كيف يقابلني علاّن، ونحن على هذه المسافة الزمنية والرُتَبية، وخاصة هذه المسافة الأخيرة. التي كان عاراً على فلان، ألا يجتازها طول عمره الوظيفي، وهو المؤهَّل المؤهَّل، بقدر ما كان هجيناً على علاّن أن يجتازها، وهو على الصورة التي تقدم ذكرها؟.

ـ اطرد هذه الصورة من ذهنك يا فلان!.

همستْ له بذلك نفسه، وأكملت:

ـ لا لا. . علاّن سوف يعتلي صهوة السعادة الجموح، وصهوة الشرف الرفيع إذا زاره فلان، ففلان كان له قدوة وصنديقاً ومثلاً طَمُوحاً أعلى. .

وفلان لن يُخرِجَه ارتفاع رتبة علاّن، فهو قد أشبع شهوة نفسه للعلى، فيما مضى من عمر وعمل، وهو ـ إلى ذلك ـ يستألف تدرّج الإنسان ـ مع

الزمن ـ إلى العلاء، بحكم سنّة التطور والإرتقاء، التي تتحكّم بآلية حركة الحياة.

فما من إنسان ـ وهو طُبعَ على الحركة والتبدّل ـ يظل، مع الزمن، في مكانه. حتى الحجر، حجر الجرد الجَلِف القبيح، يمكن أن يكون ـ بفعل الزمن والتهذيب ـ آية من آيات الجمال، في جدار عمارة متقنة، وفي تمثال بديع.

تواردت التصورات في ذهن فلان، على هذا النمط، حتى اتضح له وضوح الشمس، أن التقصير في وصل ما انقطع عشرات الأعوام، جريمة لا تغتفر... وأن الإتصال والتهنئة واجب سام مقدس... وأن هذه وذاك سوف تُسْعِدان و... تشرّفان علاّن، الذي لا بد أن تقهر مناقِبيَّتُه، نكران الزمن ولو طال، وتعالي المنصب ولو ارتفع...

●

و... انتظم نغم الهاتف رتيباً في أذن فلان... يدل على أن جرس هاتف علان يرن في منزله... وانتظمت معه انفاس فلان تهيّء العبارات الفضلى، التي سوف تصل ما انقطع من أخوّة الماضي، لتؤهلها للحياة، في الحاضر والمستقبل.

لكن رتابة نغم التلفون لم يقُطعها رفع سماعة علاّن، ولا صوته الآتي من ثنايا الماضي...

اعطى فلان العذر المنطقي... اليوم عيد... والمدير العام واسرته، في اجازة نزهه وترويح عن النفس، يستحقونها...

●

أيام... وعاد النغم الهاتفي إلى أذن فلان رتيباً... لكن الرتابة هذه

المرة كانت محدودة... فانقطعت، وملأ فراغها صوت أُنْثَوِيٌّ فتيّ، كانت ابنة علاّن صاحبته...

ـ أنا فلان... صديق ابيك القديم... هل لي أن اكلمه؟.

ـ بابا خارج المنزل...

ـ متى يأتي؟.

ـ لا أعرف... اتصل غداً...

ـ سوف أفعل... لكن... قولي له: فلان... لا تنسَيْ الأسم.

ـ لن انسى.

واقفلت...

كانْ جَرْس صوتها، يلخّص لأذن فلان، التي أرْهَفَها عمله في مجال الصوتيات، حكاية صراع مرير، يدور في أعماق جيل وريث لاحباطات مجتمع وضيع، انتصب امامه فجأة، سلم يفضي به إلى أحلام مجتمع رفيع، فاحتار، عند الدرجة الأولى من السلم، ماذا يفعل بأدوات عيش ماضيه، وأين يعثر على أدوات عيش في قابل أيامه.

●

النغم الهاتفي... عاد في اليوم التالي إلى أذن فلان... وسماعَةُ صوت علان مبتغاه. لكن هذا الصوت لم يُسمع للمرة الثالثة. والذي سُمع هذه المرة، صوت امرأة ناضج، حاول فلان أن يختبر به ذاكرته الصوتية، ففاز في الأختبار، حين قال:

ـ أنت زوجة علان...

وجاء الرد:

أنا هي بالفعل...

واستعمل فلان كل حصافته، وفصاحته، وبيانه، في إعادة التعريف بنفسه، صديقاً صدوقاً قديماً عريقاً لعلاّن. لكن اعادة التعريف لم تكن بحاجة إلى شرح. دَلَّ على ذلك حسم الحوار من جانب زوجة سعادته:

ـ اذكر اسمك وأعرفك...

وهمست نفسه لنفسه:

ـ عال... يبدو أن كل شيء بخير... والدنيا رغم سنواتها السبع عشرة العجفاء الكأداء، المدمرة للحجر والبشر.. هذه الدنيا لم تخلُ من الباقين على العهد، الوافين بالوعد...

لكن...

لكن الفكرة الوردية تلك، سرعان ما ظللّها غمام التجهُّم، فاربدّ لونها وبهت..

●

ـ سيدتي علاّنة... هل لي أن أكلّم «علاّناً» العزيز؟.

وانفتح مَصْرِفُ سَدٌّ، احتقن وراءه سيلٌ طامٍ عرم، من الكلام:

ـ علاّن ليس هنا... علان في البقاع... ذهب في رحلة ترويح عن النفس، من الجهود التي يبذلها في «المديرية». وقد احتفت به الناس اينما حلّ وارتحل... لقد اتصل بي منذ ساعة، بواسطة السيليلاّر، ليعتذر عن تناول الغداء معي، وأنه، نزولاً عند رغبة المحتفين به، قرر تناول الغداء في

البقاع. وقد خيّرني، بين أن اتغذّى مع الأولاد في البيت، أو ألحق به، فاستمهلتُه ساعة، للتفكير واتخاذ قراري النهائي في هذه القضية، وسوف يتصل بي هاتفياً، أقصد «خليوياً» طبعاً، بعد ساعة، ليطّلع على رغبتي، وليعرف صاحب الدعوة إلى الغداء، ما إذا كنت أرغب في الإنضمام إليهم، كي يرسل إليّ سيارة المرسيدس الستمائة وخمسين، موديل العام الحالي الخامس والتسعين، مع سائقها، لتقلّني إلى هناك... و...

●

واصغى فلان، بذهول أولاً، ثم بصبر جميل فيما بعد، إلى بقية هدير ذلك السيل العجيب الطريف، المتدفق من ذلك الفم الأهوج المغرور، الذي «ضَلَّتْ» صاحبته طبقتها الإجتماعية، بفعل ارتطامها المباغت بالمديرية العامة، فراح لسانها يتخبط بلهجات كل الطبقات، من شعبية القروي العفوية، إلى برجوازية اثرياء الحرب المصطنعة، إلى ارستقراطية جبل لبنان المخملية، دون أن ينسى اللسان طبعاً، أن يمر على الفرنسية والإنكليزية وحتى العربية، التي ارتكب فيها اللسان مجازر في اللغة واللفظ و (خفة الروح).

●

بعد هذا الإستعراض الصاخب الهادر، فطنت أنثى المدير العام، انها تجيب على سؤال قصير بسيط عادي، فقاطعتْ مقامتها الهمدانية، بكل ما تعلمته وتدربتْ عليه خلال شهور، من تعالي الإرستقراطية المزيفة، ومن تبرّمها بفضوليّي التلفون وطُفَيْلِيّيه، القاضّين مضجع سعادته، الذي ليس له ـ في الحقيقة ـ مضجع، من ازدحام اشغاله وأعماله...

●

سألت صاحبة السعادة فلاناً، بمقاطعة فجائية لمقامتها، وبتعالٍ وغرورٍ وتبرّم:

ـ . . . ولكن ماذا تريد من زوجي علاّن؟ .

ويتلعثم. . ويحيرة مَنْ ارتكب خطأ، ولا يعرف كيف يصلحه أو يمحوه، قال فلان.

ـ في الحقيقة. . . لا. لا. . . . لا أريد شيئاً. . .

وأطبق عليه السؤال من جديد:

ـ إذا كنت تريد شيئاً، فقد استطيع أنا أن اخدمك بدلاً عنه. . . أنا أحاول أن أخفف عنه بعض الأعباء. . .

ـ حسناً حسناً. . . متى. . . متى يعود سعادته لو سمحتِ يا سيدتي؟ .

وردت بحزم وأسف وكأنها تنذر بوقوع كارثة:

ـ والله ما عندي أية فكرة. . . يؤسفني ألا استطيع أن اجيبك على هذا السؤال الصعب. . . ولكن. . . ولكن قل لي ماذا تريد، وأنا أنقله إليه، حين يعود من الغداء في البقاع، عند السيد (علتان).

ـ يا سيدتي. . . أريد. . . أريد فقط. . . أن أسلم عليه. . . أنا صديقه الحميم قديماً. . . ولذلك فكرت في السلام عليه بعد هذه السنوات الطويلة. . . سلمي عليه ولا تنسَيْ اسمي. . . فلان. . . هذا كل شيء. . . .

وأجابت محبطة متعجبة، مستخفّة، وكأنها تقول:

ـ ما هذا المعتوه، غريب الأطوار. . . أسأله ـ أنا زوجة المدير العام ـ عما يريد فيجيب هذا الجواب التافه، بعد اتصاله بنا ثلاث مرات متتابعات؟! . .

قرأ فلان هذا الجواب، خلف جوابها المعلن وسط ضحكة حَسِبَتْها

مخملية، فإذا بها بضعة خيوط من حرير، تخللت خيوطاً من الخيشِ الكثّ الخشن..

ـ حسناً... لا تريد شيئاً... سأنقل له ذلك...

وأسرعت بإقفال الهاتف، الذي خاله فلان، بَرِماً هو الآخر، بهذه المكالمات التافهة.

●

بقيت أُذن فلان تستمع إلى ترددات انشغال الخط الهاتفي، ربما، دقائق عديدة... لكن ذهنه لم يسمعها قط... كان ذهنه، بعد الإقفال، مستغرقاً حتى الغيبوبة، في ترداد عبارة واحدة، ربما آلاف المرات في الومضة الواحدة:

ـ لن أتصل مرة أخرى... لن أتصل مرة أخرى...

وانبرى المنطق يسأل بوقاحة، فيثير سؤاله قضية اجتماعية كبرى ولَدَتْها عشوائية الزمن المهووس:

ـ لماذا لن تتصل؟.

ـ هناك شيء تغيّر فأقام سداً بيني وبينه.

إنه شيء عجيب محيّر، لا تستطيع التعاطي معه إلا بالإستثناءات... فأيّ غبيٍّ يقدم على سلوك طريق، وسائل السير فيه استثناءات؟؟!.

نعم... هناك شيء عجيب غريب تغير. تغيّر بطريقة تقفز فوق العقل، فوق المنطق، والعادات والأعراف، بطريقة تقفز فوق القانون الطبيعي للحياة.

القانون الذي يربط الثمرة الفجّة، بزمان، وبزمان آخر يربط نضجها وتألقها، وحلاوتها. . .

القانون الطبيعي للحياة. . . الذي يربط الثمرة بفصيلتها، فلا ينبت الورد على العوسج، كما لا تحمل دالية الكرمة عناقيد الحنظل.

هذا الشيء الغريب العجيب، يشبه فوضى حدثت في نظامنا الشمسي، فصارت الشمس تشرق من الغرب، وتغرب في الشرق.

صارت الأرض تدور عكس دورتها. فيدخل الخريف تالياً للربيع، والصيف تالياً للشتاء. . .

لن اتصل. . . لن اتصل. . .

خلف سماعة التلفون الأخرى. . . عالم من الخرافات. والأوهام، التي لا ضابط لها ولا معايير ثابتة، أو معروفة، أو مألوفة. . .

قل لي، بربك، مَنْ تبلغ به جرأته الهوجاء، حدّاً، يقامر معه، بكل منجزات عمره، في زمن العقل والمنطق والموازين العادلة، فيدس بنفسه في عالم الطفرات، والمصادفات اليتيمة، والكيانات الخِداج، وموازين المطفّفين؟!!. . .

وبعونه تعالى. . تم كتاب:

«الحرب. . والناس»

الإهـداء

المؤلف في سطور

ولد في «عرمتى» قضاء جزين - لبنان الجنوبي عام ١٩٣٠، غادر قريته في العاشرة من عمره إلى بيروت مع والديه، حصل على شهادة الثانوية من الكلية العلمانية الفرنسية وتخرج من الجامعة اللبنانية سنة ١٩٥٥ حاملاً الإجازة الجامعية في اللغة العربية وآدابها، ثم شهادة الكفاءة للتعليم الثانوي.

حياته العملية توزعت على حقلين اثنين: تربوي وهو حقل حرفته الأساسية - حيث مارس تدريس اللغة العربية وآدابها، ثم الإدارة المدرسية الثانوية مدة ثماني عشرة سنة، كما عمل خلالها في التأليف المدرسي أيضاً والحقل الإعلامي حيث بدأ عمله في هذا الحقل عام ١٩٥٥، فكتب القصة القصيرة تارة والمقالات المنوّعة الموضوعات تارة أخرى.

اجتذبته الإذاعة اللبنانية عام ١٩٥٩ ببريقها الخلاّب فانصرف إليها يكتب، ثم اكتشف أن عالم الإذاعة متسع إتساع الثقافة الإنسانية بأسرها فراح يكتب برامج منوعة بما فيها التمثيلية الإذاعية.

في أواسط الستينات ظهر التلفزيون في لبنان ثم في البلاد العربية فكان للمؤلف سهم كبير، فراح يكتب برامج عديدة في موضوعات شتى، لا سيما [illegible] التاريخية والتربوية، في السنوات